النبي محمد صلى الله عليه وآله
قدوة المؤمنين

النبي محمد صلى الله عليه وآله
قدوة المؤمنين

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي دام ظله

هوية الكتاب

الكتاب: النبي محمد ﷺ قدوة المؤمنين.

محاضرات: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي دام ظله.

الطبعة الثانية: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م. (٢٤٠ صفحة)

الناشر: مركز العصر للثقافة و النشر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ

لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا

سورة الأحزاب، الآية ٢١

المحتويات

الفصل الثاني: نِعَمٌ سابغات

الفصل الثالث: نهج الحياة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ومنقذ الامة محمد وآله الطيبين الطاهرين.

بالرغم من مضي أكثر من ألف عام على فقدان الأمة الإسلامية نبيها الأكرم ﷺ إلّا إنه لازال شاهداً حاضراً في ضمائر المؤمنين.

بالرغم من أنَّ صورته المباركة غابت عن الأنظار لأكثر من ١٤ قرناً، إلّا أنَّ وجهه الشريف لازال يتلألأ إشراقاً امام انظار اكثر من مليار مسلم.

بالرغم من أنَّ نبرات صوته قد فارقت مسامع الناس منذ أكثر من ١٤٠٠ عامٍ، إلّا أنَّ كلماته لازالت تدخل القلوب من دون استئذان، وتعيها كل أذنٍ واعيةٍ.

ولا نبالغ إن قلنا: إنَّ كل من يريد أنْ يعرج في سماء الايمان، ويسمو في رحاب الفضيلة، ويعلو في مدارج الكمال، لا مناص له من ان يدنو من شخصية رسول الله ﷺ وان يتتلمذ على سيرته، وينهل من ينابيع توجيهاته، ويستلهم من رؤاه وبصائره، وأنْ يتعلم منه الخير.

وذلك لأنَّ رسول الله ﷺ انما هو قمة الكمال الانساني، ورمز كل فضيلة، وآية كل حسنة، وتجلٍّ لكل خير، انه حقّاً هدية الرب للبشرية جمعاء.

من هنا صارت كل حركاته وسكناته حجة على البشر، لأنها تعبير صريح عن تفاصيل الشريعة الربانية، وتبيان واضح لسنن الدين، ومرآة صافية للحكمة البالغة.

وقد اختاره الله جل جلاله قدوة واسوة للبشرية لما امتاز به من سمات ومميزات، اذ قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

ولأجل أن نستضيء بنور النّبوة أكثر، ولكي نحذو حذو الرسول ﷺ وأن نخطو خطوات صوبه، يتطلب منا أن نتعرف ولو على بعض جوانب حياته الشريفة، وأن نستوعب ولو بعض مواقفه، وأن نهتدي بهداه.

وفي هذا المجال كانت هناك مجموعة أحاديث القاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي دام ظله في فتراتٍ مختلفة، قام الاخوة في المكتب الثقافي بتجميعها وترتيبها سائلين الله عز وجل أن ينفع بها القراء الكرام.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منّا هذا بقبول حسن إنه ولي التوفيق.

مكتب المرجع الديني آية الله العظمى المدرسي

٢٤ / ذو القعدة / ١٤١٦

١- سورة الاحزاب، الآية:٢١.

الفصل الاول

معالم شخصية

١ـ جوهر الشخصية النبوية

٢ـ المعرفة المثلى لشخصية النّبي صلى الله عليه وآله

٣ـ النّبي محمد صلى الله عليه وآله وسيلة الرحمة

٤ـ النّبي الشاهد

٥ـ قدوة المؤمنين

٦ـ الصلاة على النّبي وآله: المعاني والدلالات

٧ـ لكي نقتدي برسول اللّه صلى الله عليه وآله

١

جوهر الشّخصية النّبوية

إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١] نستلهم من سيرة الرسول ﷺ المباركة عبراً ودروساً نستضيء بها في طريقنا الشائك الذي نسلكه الآن من أجل إنتصار العدالة والحرية في الأرض، ومن أجل تحقيق حكم الله عز وجل تحقيقاً كاملاً.

ما هو جوهر شخصية النبيّ؟

وفي هذا المجال نطرح السؤال المهم التالي: ما هو جوهر هذه الشخصية الرسالية التي لم يخلق الله تعالى لها مثيلاً من قبل ولا من بعد؟ وما الذي جعل الرسول ﷺ وهو بشر يقف أمام جبروت الطغاة، وفساد الأنظمة، وانحرافات الجاهلية، ويزوِّد البشرية بزخمٍ قويٍّ هائلٍ إستمرت على اثره بالتصاعد، وستستمر حتى قيام الساعة؟

١- سورة الاحزاب، الآية:٢١.

وحتى الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) فإنه سوف لا يأتي برسالةٍ جديدةٍ، بل إنما يأتي لتطبيق رسالة جدّه ﷺ لأنَّ هذه الرسالة كاملة؛ وهو إنّما يظهر لتطبيقها لا بجهوده فحسب، ولا بانتصار الغيب له فقط، وإنما أيضا بجهود النبي ﷺ ومن استلهم منه، ذلك لأنَّ المسلمين الحقيقيين يستلهمون من حياة الرسول ﷺ، وسيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام الإيمان الحق، ويطبقون الإسلام وينشرونه ليظهر بعد ذلك الإمام المهدي عليه السلام مطبقاً جميع أحكام الإسلام، ومالئاً الأرض قسطاً وعدلاً.

الإعتماد على الإيمان بالله

فما هو جوهر هذه الشخصية، وما الذي دفعها الى أن تقف أمام كلّ التيارات المادية بكلّ ما لها من عنفوان واندفاعٍ وضغوطٍ؟

بكلمةٍ واحدةٍ نقول: إنَّ الرسول ﷺ إعتمد على الإيمان بالله، فقد كان عارفاً بخالقه، ومن خلال معرفته هذه وإيمانه الكامل إستطاع أن يقف كالجبل الأشم أمام كلّ الإنحرافات، ويدفع بسفينة البشرية الى شاطئ النجاة.

وفي تلك اللّحظة التي خرج فيها النّبي ﷺ من مكة المكرمة فإنه خرج منها مهاجراً تاركاً أرضه وبلده، وأعزّ بقاع الأرض إلى قلبه، ألا وهو بيت الله الحرام، فالتاريخ يروي لنا أنه ﷺ عندما خرج من مكة التفت لفتة إليها

وقد إغرورقت عيناه الكريمتان بالدموع، ولكن جبرائيل عليه السلام سرعان ما أوحى إلى قلبه عن الله عزّ وجل قائلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. وهنا اطمأنت نفسه وخرج من مكة مهاجراً تلك الهجرة التي كانت اللبنة الأولى لبناء الأمة الإسلامية في التاريخ.

وفي الحروب وقف مع الرسول صلى الله عليه وآله أصحابه المخلصون وفيهم من أمثال علي بن أبي طالبٍ عليه السلام، وجعفرٍ، وأبي ذرٍ، وغيرهم من الذين كان الواحد منهم يقف أمام الناس جميعاً دون خوفٍ أو وجلٍ، إلى درجةٍ أن علياً عليه السلام قال: «**وَاللّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا**»[2]. ومع شجاعة عليٍ عليه السلام الفائقة هذه فإنه كان يقول: «**كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْه**»[3].

نورٌ وهّاجٌ

ترى ما الذي جعل قلب الرسول صلى الله عليه وآله بهذه الدرجة من الشجاعة والصمود بحيث يلوذ به علي عليه السلام وأمثاله من الأبطال؟

إن الإنسان عندما يدرس حياة النّبي صلى الله عليه وآله بفكره البسيط والمحدود فإنّه

١- سورة القصص، الآية ٨٥. انظر الرواية في: تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٤٦٣، عند تفسير الآية.

٢- نهج البلاغة، كتاب ٤٥.

٣- نهج البلاغة، من غريب كلامه عليه السلام، رقم ٩.

لا يستطيع أن يستوعب ما أحدثه ﷺ من تغييراتٍ جوهريةٍ في العالم. لقد كان مبعثه ﷺ إيذاناً بحدوث أمواجٍ هائلة القوة ومتصاعدة في حياة البشرية، فما هو النور الوهاج الذي أضاء قلبه ليضيء معه العالم أجمع؟

إنّه الإيمان بالله والمعرفة به؛ ففي كل قضية تلجأ البشرية إليه وهو يلجأ الى الله عز وجل، وفي كل ليلة كان ﷺ يقوم ثلاث مراتٍ ليعبد ربّه، ويستلهم من عبادته الشيء الكثير من العزم والصمود؛ في بداية الليل بعد صلاة العشاء كان ﷺ يغفو غفوةً، وفي بداية الثلث الثاني من الليل يقوم من النوم لينحدر الى مناسكه وعباداته ويستمر متعبداً إلى الصباح[١].

إنّني هنا أريد أن أوجه أنظار القراء الكرام إلى هذه النقطة بالذات، فلقد نسينا الله سبحانه، وفي طليعة الأشياء التي نسيناها بعد الله تعالى أنفسنا كما قال عز وجل: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾[٢]، وهذا يعني إننا إذا نسينا الله فإننا سوف ننسى قدراتنا وطاقاتنا وكرامتنا.. فنحن لم نبتل بما ابتلينا به لحد الآن من مآسٍ وويلاتٍ، ومن تجبر المستكبرين في الأرض، وضغوط الطواغيت، وفساد المفسدين إلا بعد أن نسينا خالقنا وبارءَنا.

حقيقةً منسيّةً

وعلينا الآن أن نعود الى الله، والى عبادته عبادةً حقيقيةً، والتضرع إليه

١- أنظر: بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٧٦، ح١١٥، و: تهذيب الأحكام، ج٢، ص٣٣٤.
٢- سورة الحشر، الآية:١٩ .

تضرعاً نابعاً من القلب، فالله عز وجل لا يمكن أن ينخدع – وحاشاه أن ينخدع – بهذه الصلوات الجوفاء، والعبادات الفارغة، والشعائر القشرية. هذه لا يمكن أن تنفع أمتنا شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، والشيء الوحيد الذي ينفعنا هو الحقيقة واللّب؛ فالله تعالى لا يطلب منّا كثرة الصلاة والصيام، بل قلباً خاشعاً، وعيناً دامعةً، وسلوكاً مستلهماً من إيماننا الحقيقي به.

ولذلك فإنّي ألفت الأنظار الى هذه الحقيقة المنسية ونحن نعيش المأساة في كل مكانٍ، فقد تظاهرت الدنيا علينا وكادت المؤامرات تخنقنا، فهناك الآن أكثر من ألف مليون مسلمٍ يعيشون تحت ألوانٍ من العذاب في كل مكان، ومثل هذه الظروف تدعونا إلى أن نعود الى الله تعالى، وأنْ نصفي قلوبنا، ونطهِّرها من الأحقاد والضغائن، ليكون ما بيننا وبين الله عامراً، وهو عز وجل بدوره سيصلح ما بيننا وبين الآخرين.

برنامجٌ روحيٌ لتربية النفس

ولنضع في هذا المجال برنامجاً روحياً لتربية أنفسنا، فنحن لو حكمنا البلاد – مثلا – وفي قلوبنا أحقادٌ تجاه بعضنا البعض فسوف ندمر أنفسنا، فلنخرج – إذن – هذه الضغائن من قلوبنا، ونقتلع جذورها أولاً، ثم نفكر بعد ذلك في إقامة حكم الله، فإنّ أحداً لا يستطيع أن يطبق هذا

الحكم إلّا من كان يمثل في سيرته وسلوكه وخلقه رسول الله ﷺ فليس من المعقول أن يستطيع إقامة حكم الله من استبد به حب الرئاسة، ولذلك فاني أوصي جميع الرساليين في كل مكانٍ بأن يبادروا إلى تزكية أنفسهم، والتوبة إلى الله عز وجل، والإنابة إليه، وذلك من خلال تطبيق فقرات المشروع التربوي التالية:

١- الدعاء

إنّ أهمية الدعاء ليست أهميةً ماديةً فحسب، كما أنّها لا تقتصر على إصلاح النفس البشرية، وتحديد نقاط الضعف فيها، بل إنّ أهميته تكمن في أنه يربط الإنسان بالقدرة الإلهية التي لا تنتهي، فالدعاء يجعل قلوبنا مضاءةً بنور الإيمان، فلنتضرع الى الله في جوف الليل، فإن بيده الأمور، وهو الذي يرفع من يشاء ويضع من يشاء ويؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، وبيده كلّ شيء.

إنّ الدعاء الحقيقي هو الدعاء الذي يدفعنا إلى العمل في أيامنا، أو لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ الذين تخرَّجوا من مدرسته بفضل تعاليم الوحي رهبان اللّيل وفرسان النهار؟ لقد كانت ضراعتهم في الليل هي التي تدفعهم الى أن يخوضوا غمار الحرب - كالأسود - في النهار، حتى قال ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْب مَسِيرةَ شَهْرٍ**»[١].

١- مناقب آل أبي طالب، ج١، ص ١١٠.

فلنقف لله خاضعين خاشعين بعد صلواتنا، ونحن نرى أن أئمة النور وقادة الرسالة وهداة الأمة كانوا يحثون الناس على الدعاء في أشد الظروف وأحلكها. فعندما تنقطع الوسائل ولا تتبقى للإنسان وسيلةٌ للدفاع عن نفسه من أجل القيام بالتغيير الحقيقي، فحينئذ تبقى وسيلة أخرى إنما هي وسيلة إنتماء الإنسان إلى الرسالة، فعندما تشتد الظروف، ويتصاعد الإرهاب ينقطع إنتماء الإنسان إلى الرساليين فلا يشعر أنه جزءٌ منهم، وهنا يلعب الدعاء دوره، ليحافظ على رسالية الإنسان، ويبقيه منتمياً إلى مجتمع التغيير، وأمة الإنطلاق.

ولذلك فإنّنا نؤكد على الإخوة الرساليين العاملين في الساحة أن لاينسوا هذا السلاح الفعال الذي يقول عنه النّبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»[1].

والدعاء هنا له جانبان؛ الجانب الأول أن تدعو الله عزّ وجلّ أن ينصرك على عدوك، والجانب الثاني أن تدعوه لكي يخذل عدوك.

وفي يوم القيامة سوف يحاسب الله سبحانه الإنسان على تركه للدعاء الذي يحارب به الطواغيت، والظالمين، ويلعنهم من خلاله، ويطالب بإسقاط دعائم حكمهم، وتقريب آجالهم. فكلّ إنسانٍ مكلفٌ ومسؤولٌ أمام الله عن الدعاء وراء كل صلاة وفريضة لإسقاط الطاغوت، فربما

١ - الكافي، ج٢، ص٤٦٨.

تكون هناك آهة حزينة تخرج من قلب مظلومٍ ومفجوعٍ تستجاب عند الله - جلت قدرته - وتقضي على الطاغوت.

صحيح أن هناك في الكون سنناً ومصالح، وأن هناك حقاً يحكمه، ولكن من سنن الله أستجابة الدعاء، والصلاة التي يأمرنا الخالق بأدائها قائلاً: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] جوهرها الدعاء، وقد روي عن الإمام عليه السلام أنّه كان يدعو في القنوت على أعداء الأمة الإسلامية بأسمائهم، ونحن أيضاً يجب علينا أن ندعو على أعداء الإسلام بأسمائهم، ومن المؤكد أن الله تعالى سوف يستجيب لنا لأنه رحيم بعباده.

٢- الصوم

علينا بالصوم فان الله عز وجل يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[2] فقدّم الصبر الذي هو الصوم على الصلاة، وعلى الرساليين المجاهدين في سبيل الله أن يمارسوا الصيام كل أسبوع على الأقل، لان الصوم من شأنه أن يزيد من إيمانهم وصلابتهم، ويجعل نفوسهم شفافةً، كما يجعل إرادتهم صلبةً وقويةً، ويذكّرهم دوماً بالمأساة التي تعيشها شعوبهم، وهنا أوكد على المؤمنين البعيدين عن أوطانهم والذين من الممكن أن يفقدوا شيئاً فشيئاً أنتماءهم ألى شعوبهم الرازحة تحت نير الطغاة، ويفقدوا أحساسهم

١- سورة البقرة، الآية ٤٥.

٢- سورة البقرة، الآية ٤٥.

بمآسي شعوبهم هذه، أوكد عليهم الالتزام بالصوم، فمن خلال الصوم، هذه العبادة المهمة سيتذكرون دوماً الآلام والمحن التي يعيشها إخوتهم، هنا وهناك.

٣- تصفية القلوب والنوايا

علينا أن نصفي قلوبنا ونوايانا تجاه إخوتنا المؤمنين، فإذا قَست قلوبنا تجاه بعضنا البعض، وإذا لم نشعر بالمسؤولية، وأبعدنا أنفسنا عن واجباتنا الرسالية، فإن الله تعالى سوف ينزل غضبه علينا، وعندما تكون نياتنا صافيةً، وأعمالنا خالصةً لوجه الله فإن أعمالنا سوف تؤتي ثمارها، فالعمل ينبغي أن يصطبغ بالنية الصالحة. وهذه هي وصيتي للمؤمنين الرساليين العاملين في الساحة، فعلى كل واحد منّا عندما يتجه الى النوم أن يتفكر في الأعمال التي قام بها؛ هل كانت لله تعالى أم للشهرة، ولذاته؟ ولنحذر من أن ندخل النار - لا سمح الله - بالأعمال التي هي صالحةٌ في الظاهر، فهناك البعض من الناس سيُعذَّبون بالنار بسبب صلاتهم، وصومهم، وحجّهم وغيرها من العبادات التي أدوها رياءً وسمعةً.

٤- حسن التعامل

من الأمور المهمة التي يجب أن نلتزم بها ونحن نخوض معمعة الحياة، أن نحسن تعاملنا مع بعضنا البعض، فالتُهم، والإفتراءات، وسوء الظّن،

والغيبة كلّها أمور من شأنها أن تؤخر إنتصار المؤمنين حتى وإن قدموا التضحيات الجسيمة، وسالت منهم الدماء الغزيرة، لأن كلمة السوء تؤثر في القلب والنفس، وتعتبر من الآثام الكبيرة كما قال عزَّ وجل: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1].

وقد نهانا القرآن الكريم عن أن نقول مالا علم لنا به، وأن نتريث قبل إصدار الأحكام في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[2]، ففي كثير من الأحيان نسمع إشاعة ضد إخواننا المؤمنين فنبادر إلى تصديقها دون علم وتثبت، ونتخذ على أثر ذلك مواقف إرتجالية نندم بعدها حيث لا ينفع الندم، إنّ علينا أن نأخذ بنظر الإعتبار في هذا المجال أن اللسان له دوره في الحياة، وإنّنا يجب أن ننزّه ألسنتنا عن التهمة، والإفتراء، والغيبة، وأن يكون هدفنا توحيد الصفوف، ولم الشمل.

٥- نشر الوعي القرآني

يجب أن لا يكون همّنا أن نحدث الناس عن التغيير الرسالي دون أن نقوم بدورنا في نشر الوعي الديني والقرآني، فلو لم نستطع أحياء دور القرآن

١- سورة الحجرات، الآية ١٢.
٢- سورة الحجرات، الآية ٦.

الكريم في مجتمعاتنا، وإعادة الناس إلى تلاوة القرآن، والتدبر في آياته، والإستلهام من نوره، فإنّ المساعي الرسالية سوف لا تنمو، ولا تنتصر.

إن الجماهير قد أدركت الآن أن الإسلام حق من خلال ما يجري في الساحة، لقد جربت الشرق والغرب وعرفت ماذا يجرّان عليها من ويلات ومآسي، واكتشفت أن هذه الأفكار المادية خاطئة، وبدأت الآن تتوجه نحو الإسلام، فعلينا أن نستغل هذه الفرصة لتزويدها بغذاءٍ ثقافيٍ لكي نستطيع الإعتماد عليها.

إن تلاوة القرآن ودراسته يجب أن تكونا في طليعة أعمال المؤمنين؛ فكل إنسانٍ مؤمن ينبغي أن يقرأ يومياً صفحات من القرآن الكريم يتدبر فيها ليعرف طبيعة ثورته، فالإنسان المجاهد عندما يستشهد وهو يتلو القرآن فإن درجته ستكون أرفع من سائر الشهداء؛ فقد جاء في الحديث الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام:

«عَلَيْكُمْ بِتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ، فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً رَقِيَ دَرَجَةً»[١].

أي إقرأ القرآن وارق الدرجات عند الله عزّ وجل، فالشهيد عندما

١- بحار الأنوار، ج٦٦،ص٣٧٠.

يكون قارئاً للقرآن الكريم فإنَّ درجته ستكون مع الصديقين.

٦- العمل على تحقيق الوحدة

علينا أن نعلم إنَّ تحقيق الوحدة عمليةٌ صعبةٌ جداً، فعلى الإنسان أن يبني كيان هذه الوحدة لبنةً لبنةً من القاعدة، وهذه الوحدة تبدأ من العائلة، ثم الأصدقاء، ورفاق الدرب لتسود المجتمع الصغير ثم الكبير، ولذلك فان على الأمة الإسلامية أن توحد نفسها من القاعدة من خلال تشكيل الهيئات الرسالية في كل مكان، وهذه الهيئات يجب أن لا تقتصر في نشاطها على الحدود والإطارات التي ينخرط فيها الشباب فقط، بل يجب أن تشمل الوحدة جميع شرائح الأمة وفئاتها.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه عندما كان يبعث مجموعةً صغيرةً لأداء مهمةٍ معينةٍ فإنه كان يختار لهذه المجموعة قائداً، وعلينا نحن أيضاً أن نوحد أنفسنا، ونستجمع قوانا، ونخرج من ذاتياتنا، ونصلح ما بيننا.

إن هذه المرحلة تقتضي أن نخطو خطوات متدرجة لتحقيق أهدافنا، أما إذا أردنا أن نحقق هذه الأهداف مرةً واحدةً، وعلى مستوى واسعٍ فإنّ الفشل سيكون مصير هذه الأهداف.

٧- إبداء ردود فعلٍ مناسبةٍ تجاه الأحداث

على كلّ واحدٍ منا أن يبدي ردَّ فعلٍ مناسبٍ تجاه الأحداث؛ فإذا سمع

الواحد منا أن أخاً له في الإيمان قد استشهد هنا أو هناك، وأن آخر قد اعتقل، وأن مؤامرة قد نفذت ضد إخوانٍ لنا في الدين في هذا البلد الإسلامي أو ذاك، فإنّ علينا أن نتخذ موقفاً إزاء هذه الأحداث، كأن نشترك في المظاهرات الإحتجاجيّة، أو نكتب كلمةً، أو نلقي خطاباً. أما إذا مرت تلك الحوادث دون أن نحرك ساكناً فإن هذا الموقف يسبب قسوة قلوبنا.

وفي هذا المجال يروى عن الإمام عليٍ عليه السلام: أنه تألم كثيراً عندما سمع أنَّ العصبة من أهل الشام هتكوا حرمة النساء المسلمات في غارةٍ على الأنبار، فقال: «**فَلَوْ أَنَّ مُؤْمِناً مَاتَ دُونَ هَذَا مَا كَانَ عِنْدِي مَلُوماً بَلْ كَانَ عِنْدِي بَارّاً مُحْسِناً**»[١]، في حين أننا نرى الآن الكثير من المسلمين يقرأون الأخبار ثم يمرون عليها مرور الكرام!

بماذا نجيب الشهداء

إنَّ الراضي بالظلم كفاعله، والساكت عن الحق شيطانٌ أخرس، والله سبحانه وتعالى يشمل الناس بالبلاء عندما يعينون الظلمة والمجرمين بالرضا.

إنّ الشعوب الإسلامية لو قامت بإبداء ردود الفعل المناسبة تجاه الظروف والأحداث العصيبة والمأساوية التي تمر بها لاستطاعت أن تزيل

١- الإحتجاج، ج١، ص١٧٦.

حكومات الطغاة، وتقاوم الظلم والفساد والإنحراف، فالحكام المتجبرون لم يستطيعوا التحكم بنا، والسيطرة على مقدراتنا، وإبعادنا عن ديننا وعقيدتنا إلا بعد أن خيم الصمت والسكوت علينا، وأصبحنا لا نبدي أيّ حِراكٍ إزاء ما يجري حولنا، ولا نشارك في الأحداث مشاركةً أيجابيةً فعالةً من شأنها إنْ تحقّق لنا الحياة الحرة الكريمة حيث لا ظلم، ولا طغيان.

٢

المعرفة المثلى لشخصية النبي صلى الله عليه وآله

في العديد من النصوص الإسلامية نلاحظ التأكيد على الفكرة القائلة بأن الله عز وجل أول ما خلق من الأنوار القدسية هو نور نبينا وحبيب قلوبنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وأنه خلق السماوات والأرض والجنان والكائنات جميعاً بهذا النور النّبوي.

فلنتعرف ولو بمقدارٍ قليلٍ على حياة نبينا صلى الله عليه وآله وعلى شخصيته الفذة، ذلك لأن معرفتنا به هي التي تقرّبنا إليه، وكلما اقتربنا من معرفتنا له إقتربنا من ربِّنا، فدرجات الناس في الآخرة إنما هي بقدر عقولهم ومعارفهم، والأعمال هي بالنيات، لأن عظمة العمل، وعظمة الإنسان العامل، لهما تجليات في الأهداف الكبيرة التي يقوم الإنسان بذلك العمل من أجلها، ومن هنا فكلما كانت معرفة الإنسان بربّه أسمى، كانت أعماله أكثر سمواً وعظمةً.

العمر ليس مقياسا للإيمان

إنّ المسافة الزمنية التي يقطعها الإنسان من حين ولادته وحتى وفاته ليست ميزاناً ومقياساً في ارتفاع درجاته أو تسافلها، ففي لحظةٍ واحدةٍ قد يقطع الإنسان عشرات الملايين من الدرجات إلى ربّه، وهذه اللحظة هي لحظة المعرفة.

إنَّ البعض يعرف رسول الله ﷺ كقائدٍ، وكرجلٍ عربيٍ أنقذ العرب من الجهل والضلالة والتمزق والتجزئة والتخلف، وبعث فيهم نهضةً حضاريةً متساميةً، والبعض الآخر يسمو على ذلك فيقول: إنَّه كان رسول الله، وإنه كان يحمل رسالةً من الغيب، وكان الوحي يتنزل عليه، ولكنه كان في بعض الأحيان يرتكب بعض الأخطاء والهفوات، وتصورهم هذا ليس بالتصور الذي يليق بشخصية الرسول ﷺ.

معرفة كافية

وهناك من يعرفه ﷺ باعتباره إماماً للرحمة، وقائداً للهدى، وسراجاً منيراً، ولكن هؤلاء يقتصرون على الكلمات وظواهرها التي جاءت في الذكر الحكيم، أو وردت في الروايات والنصوص، أو في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وما أجلّها وأعظمها من كلماتٍ تصف شخصية الرسول ﷺ بأعظم الوصف وأجله.

ومثل هؤلاء على خيرٍ، لأنهم عرفوا النّبي ﷺ بأدنى ما يمكن أن يُعرف به. لقد عرفوه بالتجلي الظاهر له، وبالبشرية التي جعله الله تعالى فيها، وهذه المعرفة كافية، وصاحبها يكون من أصحاب الإيمان.

ولكن السؤال المهم المطروح هنا هو: هل بذلك فحسب تتم معرفة شخصية الرسول ﷺ؟

كلا بالطبع، فنحن لو أدركنا بعمق معنى أنَّ الله عزّ وجل خلق نور نبيّنا محمد ﷺ قبل أن يخلق سماءً أو أرضاً أو ملائكة، ثم أضفنا هذه الفكرة إلى الرواية التي وردت عن رسول الله ﷺ فيقول:

«إِنَّ أَوَّلَ خَلْقٍ خَلَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَقْلُ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ. وَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أُعَاقِبُ»[١].

لو عرفنا هذه الرواية وقارنّاها بتلك الفكرة، وعرفنا أن الله تبارك وتعالى خلق الكائنات خلال لحظةٍ واحدةٍ، وأن هذه الكائناتِ بما فيها من شموسٍ ومجراتٍ ماهي إلا جانب من خلق الله، وإنَّ البشرية ليس باستطاعتها أنْ تبلغ آماد وأبعاد الكائنات التي يخلقها الله في كل لحظة... لو عرفنا كلَّ ذلك فلعلنا حينئذٍ نعرف شيئا من عظمة نبيّنا محمد ﷺ. ولكن هيهات، فهو ﷺ عندما يقول لعليٍ عليه السلام:

---

١ - من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦٩.

«يَا عَلِيُّ! مَا عَرَفَ اللهَ إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ، وَمَا عَرَفَنِي إِلَّا اللهُ وَأَنْتَ، وَمَا عَرَفَكَ إِلَّا اللهُ وَأَنَا»[١]؟

فإنّ هذا القول ليس مجرد مبالغاتٍ، ولكن عقولنا هي التي تقصر عن بلوغ وإدراك هذه الأبعاد.

معارضُ مترابطةُ

ترى ماذا يعني أنّ الله تعالى خلق الكون بنور الرسول ﷺ، وخلق الجنة بنور أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟ وهل هي مبالغاتٌ وأوهامٌ؟

إنّنا لم نعهد في كلامهم عليهم السلام أوهاماً ومبالغات، حيث جاء عن رسول الله ﷺ يقول في ذلك:

«خَلَقَنَا اللهُ نَحْنُ حَيْثُ لَا سَمَاءٌ مَبْنِيَّةٌ، ولَا أَرْضٌ مَدْحِيَّةٌ، ولَا عَرْشٌ ولَا جَنَّةَ ولَا نَارٌ، كُنَّا نُسَبِّحُهُ حِينَ لَا تَسْبِيحَ، ونُقَدِّسُهُ حِينَ لَا تَقْدِيسَ، فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ بَدْءَ الصَّنْعَةِ فَتَقَ نُورِي فَخَلَقَ مِنْهُ الْعَرْشَ، فَنُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِي، ونُورِي مِنْ نُورِ اللهِ، وأَنَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَرْشِ.

ثُمَّ فَتَقَ نُورَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَخَلَقَ مِنْهُ الْمَلَائِكَةَ، فَنُورُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، ونُورُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ

---

١ - مختصر البصائر، ص٣٣٦.

نُورِ اللهِ، ونُورُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وفَتَقَ نُورَ ابْنَتِي فَاطِمَةَ مِنْهُ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ، فَنُورُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مِنْ نُورِ ابْنَتِي فَاطِمَةَ، ونُورُ فَاطِمَةَ مِنْ نُورِ اللهِ، وفَاطِمَةُ أَفْضَلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ.

ثُمَّ فَتَقَ نُورَ الْحَسَنِ، فَخَلَقَ مِنْهُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ، فَنُورُ الشَّمْسِ والْقَمَرِ مِنْ نُورِ الْحَسَنِ، ونُورُ الْحَسَنِ مِنْ نُورِ اللهِ، والْحَسَنُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ.

ثُمَّ فَتَقَ نُورَ الْحُسَيْنِ، فَخَلَقَ مِنْهُ الْجَنَّةَ والْحُورَ الْعِينَ، فَنُورُ الْجَنَّةِ والْحُور الْعِينِ مِنْ نُورِ الْحُسَيْنِ، ونُورُ الْحُسَيْنِ مِنْ نُورِ اللهِ، والْحُسَيْنُ أَفْضَلُ مِنَ الْجَنَّةِ والْحُورِ الْعِينِ»[١].

إنّ ذلك الخلق الأعظم الذي خلقه الله تعالى مجرداً من كلّ شائبةٍ وتغييرٍ، والذي بقاؤه مستمدٌّ من بقاء الذات الإلهية، هذا الخلق وهبه الله للإنسان وجعل نوره في قلب محمد ﷺ الذي هو حبيب الله عز وجل، وهذا اللقب يعني أن الله يحبه، ويكرمه، ويعظمه، وأنه قد جعله أقرب الناس إليه. إنها كلمةً لا يمكن أن نعرف ولو جزءاً بسيطاً من أبعادها، إلّا بعد أنْ نعرف شيئاً ما عن عظمة ربّنا سبحانه وتعالى.

١- بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٦.

ترى لماذا سقطت في يوم مولده الأعظم شرفات المدائن؟ ولماذا غاضت بحيرة ساوة؟ وفاضت بحيرة السماوة؟ ولماذا أطفئت نيران فارس في معابدها؟ ولماذا ضربت نجوم السماء بعضها بعضاً؟ ولماذا حدثتْ تغيراتٌ هائلةٌ في الكون؟ كيف ولماذا إنبعث النور من بيت آمنة بنت وهبٍ إلى عنان السماء، هذا النور الذي أضيئتْ به جنبات مكة؟ ولماذا جعل الله تعالى أمة محمد أفضل أمةٍ، وخير أمةٍ أخرجتْ للناس؟

إنّنا إنْ لم نعرف هذه الحقائق ولم نأخذها بعين الإعتبار فإنّ علاقتنا بالنّبي ﷺ ستكون علاقةً طفيفةً هشةً وغير كافية لكي تحملنا الى الدرجات السامية، وبالإضافة إلى ذلك فانَّ معرفتنا بالرسول ﷺ إنْ لم تتم فإنَّ معرفتنا بالأئمة عليهم السلام لا يمكن أنْ تتم، ومن لم تتم معرفته بهم فإنّ دينه سيكون ناقصاً كما يشير إلى ذلك بصراحة الدعاء المعروف:

«اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ؛ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ؛ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»[١].

١- الكافي، ج١، ص٣٣٧.

المعرفة حبٌ وسلوكٌ

فلنكمل معارفنا التي هي درجاتنا الى الله تعالى، ولا بد أن تتحول هذه المعرفة إلى حبٍ، والحب إلى سلوك، والسلوك إلى برنامجٍ، والبرنامج إلى خطٍ نستقيم عليه حتى المات، والمعرفة إذا كانت متكاملة، وكانت معرفة العقل والعاطفة، ومعرفة إتصال القلب بمن يعرف، فإن هذه المعرفة هي التي ستتحول إلى حالة حبٍ، وفي هذه الحالة سنحب الرسول ﷺ والحبيب لمن يحب مطيع كما يقال، فالإنسان يتبع ويطيع من يحبه شاء أم أبى، لأن القسم الأكبر من سلوكيات الإنسان يمثل الجزء غير الواعي منه.

وعلى هذا فإن مجموعةً كبيرةً من سلوكيات الإنسان تتبع اللاوعي، فالحب والبغض يدخلان في اللاوعي وهما اللذان يقودانه، فعندما يجعل الإنسان شخصاً ما قدوته، وأسوته، وإمامه، وقائده، ويضمر له الحب الكبير فإن سلوكيات هذا الشخص سوف تنعكس عليه بشكلٍ لا إراديٍ.

فإن أحب الإنسان شخصاً كالنّبي ﷺ الذي هو حبيب الله ورسوله، وصاحب الخُلُقِ العظيم، والآداب الرفيعة، والسلوك السامي، فإنه -بالطبع - سوف يبرمج فكره، وسلوكه، ولا وعيه طِبقاً لحياته ﷺ.

ويخطئ من يزعم إنَّ أكثر أعمال الإنسان تصدر منه قسريا، بل إنها على العكس من ذلك تأتي بصورة عفوية وبدون تكلف، ولكن هناك حاجزٌ لا

بد من التذكير به عسى أن يكون هذا التذكير مفيداً، وهذا الحاجز يتمثل في أنّنا نحب الرسول ﷺ، وأنّنا نحرص على أن نربّي أطفالنا على حبه وحب الأئمة عليهم السلام ولكن المشكلة أنّنا لا نعرف سلوكه، فعندما نرى حياتنا مختلفة عن حياته فالسبب في ذلك يعود إلى قلّة معرفتنا بسيرته.

إنَّ علينا أن ننظر إلى حياة الرسول ﷺ؛ كيف كان يمشي، وكيف يصافح، ويبتسم، ويبكي، ويقوم، ويجلس... فهذه كلها آدابٌ وبرامج نحن بعيدون عنها، ولو عرفناها معرفةً كاملةً لاستطعنا التكيُّف معها.

لا للمعرفة المجزأة

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن معرفتنا بالرسول ﷺ يجب أن لا تكون معرفةً مجزَّأةً فعلينا أن لا نعرفه كقائدٍ، ثم نجهله كمعلمٍ ومربٍّ، ثم نجزّئُ هذه المعارف عن بعضها لتكون مجموعة نقاطٍ غير مترابطةٍ مع بعضها، فمثل هذه المعرفة الناقصة والمشوهة لا تدفعنا إلى إتباع النّبي ﷺ بل لا بد أن نجعل معرفتنا بحياته وسيرته معرفةً متكاملةً، أي أنْ ننظر إليه من خلال معرفتنا بسيرته، وكأننا ننظر إلى شخصٍ حاضرٍ أمامنا، وحينئذٍ سيصبح النّبي ﷺ إمامنا حقّاً، ومَنْ أصبح الرسول إمامه إهتدى حتى في بعض السلوكيات التي لم نجد الحديث عنها في التاريخ بشكلٍ مباشرٍ، فنحن في هذا المجال نستطيع أن نتصور أن الرسول ﷺ لو كان موجوداً

فماذا كان سيفعل؟ وذلك من خلال معرفتنا بسائر أبعاد شخصيته.

غبنٌ وخسارةٌ

إنِّ من الغَبْن والخسارة والحرمان أن يعيش الإنسانُ المسلم سنوات طويلة من عمره وهو لا يعرف أئمته، ولا يعتقد بهم إلّا إعتقاداً سطحياً وعابراً.

وعلى سبيل المثال فإنّنا نذكر الإمام علي عليه السلام دون أن نتعمق في شخصيته، وهكذا الحال بالنسبة الى سائر الأئمة عليهم السلام فنحن لا نعرف عنهم إلّا مقتطفات نسمعها من بعض الخطباء الذين لا يذكّرونا إلّا بجانبٍ بسيطٍ من حياتهم، أفليس من المُؤسف أنْ نكون مقصِّرين في معرفتهم في حين أنَّ معرفتهم هذه من شأنها أن تُنجينا في الدنيا والآخرة كما تُؤكد على ذلك الروايات.

فلنحاول - إذن - أنْ ندرس حياة النبي صلى الله عليه وآله وحياة الأئمة عليهم السلام دراسةً معمَّقة ومن منظارٍ جديدٍ يعيننا على أن نعيش وفقاً لبصائرهم وسلوكياتهم، ولنعلم أن هذا هو السبيل الوحيد لإحياء الإسلام ونشره في أرجاء المعمورة.

٣

النّبي محمد ﷺ وسيلة الرحمة

حقيقة وجود الإنسان ونسبته الى هذا الكون لا تحدّد من خلال نظرةٍ محدودةٍ الى حياته وحياة هذا الكون العظيم من حوله، لكن نظرةً واقعيةً تنطلق من أفقٍ علميٍ ربما تكشف للإنسان أنه لا يتفاعل إلّا مع جزئياتٍ محدودة من هذا الوجود، وأن حياته ليست إلا لحظة من عمر الزمن، إذ الزمن يمتد ويمتد إلى ما لا نهاية له في علمنا، وكذلك الى المسافة التي لا نهاية لها في علمنا، فقبل عالمنا هذا ألف ألف عالم، وقبل أبينا آدم عليه السلام ألف الف آدم[1].

ولعل مقارنة نسبية تكشف جانباً من واقع حياة الإنسان ووجوده بالنسبة إلى الكون والوجود كلّه. فحين يُسائل الإنسان نفسه عن نسبته إلى هذه الأرض التي يعيش عليها، بمعنى أنه لو جعل نفسه في كفّةٍ والأرض في كفّةٍ أخرى سيقف على حقيقة أنّه ليس إلّا كنسبة حصاةٍ صغيرةٍ إلى

١ - أنظر: التوحيد [للصدوق]، ص٢٧٧.

صحراء مترامية الأطراف، وليس إلا كقطرةٍ في بحر قمقامٍ، ولن يجد نفسه إلّا حلقةً صغيرةً في سلسلة بني آدم الطويلة جداً بل هو بالنسبة إلى عمر الدهور والازمان لمحةٌ أو لحظةٌ لا تكاد تُذكر.

هذه نسبة الإنسان إلى الأرض، وذات النسبة هي نسبة الأرض إلى العناقيد والمجرات المحيطة بها، وحين يريد أحد العلماء أن يقرّب لنا هذا المفهوم ويصور لنا هذه الحقيقة يقول: تصور أنّك تدخل مكتبةً عظيمةً تضمّ مليون كتابٍ وأنت تبحث فيها عن أصغر الكتب حجماً ومن ثمَّ تبحث عن أصغر صفحةٍ وعن أصغر سطرٍ في تلك الصحفة وعن أصغر كلمة في ذلك السطر ثمَّ عن أصغر حرف في تلك الكلمة، فالأرض ذلك الحرف بالنسبة الى محتويات المكتبة من الكتب والصفحات والأسطر والحروف.

وهذا عالَمٌ فلكيٌ آخرٌ حينما يريد أن يحدد لنا العلاقة ويبين لنا النسبة بين حجم الأرض وحجم هذا الكون الرحيب يقول: أرضنا هذه وما حولها من كواكب وحتى المنظومة الشمسية هذه جميعها ليست إلا كسمكة صغيرة من تلك التي ترتاد شواطئ البحار وسواحل المحيطات. ولكي تتكامل الصورة ويتضح هذا التشبيه وهذه النسبة نقول: إنَّ هذه الشمس العملاقة الكبيرة بدرجة أن الأرض لو القيت فيها لكانت ككُرةٍ صغيرةٍ تُرمى في ملعبٍ كبيرٍ أو كحجارةٍ في صحراءٍ، شمسنا هذه لها في هذا الكون

مقبرةٌ تدفن فيها، فالله جلّتْ قدرته جعل في هذا الفضاء الوسيع مقبرةً للشموس، مقبرةً تستوعب كلَّ الشموس حين ينتهي مفعولها، بل حين يشاء الله سبحانه ذلك، حيث تؤخذ وتُرمى في هذه المقبرة التي يُطلق عليها الحفرة السوداء أو المظلمة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[1] مقبرة لا تمتلئ بالشموس التي تُرمى فيها.

الجنة أوسع .. وأوسع

هذا الخَلقُ العظيم حين يتضح للإنسان لا بد وأنه سيتصور الجانب الآخر ألا وهي الجنة التي وعد الله عباده المتقين في الدار الآخرة، حيث إنَّ هذا الكون بعظمته ليس بالنسبة للجنة إلّا شيئاً يسيراً بسيطاً ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[2] وهذا إنما يعني أن الجنة أوسع من كلِّ هذه السماوات وهذه المجرات وكلِّ الأجرام السماوية التي يعجز الإنسان عن تصورها إلا أن يشاء الله تعالى بما يهبه للإنسان من سلطان العلم ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[3].

هذا خلق الله جلّت قدرته، ولكن الذي ينبغي لنا هو أن نسأل أنفسنا عن دلالة هذا الخلق العظيم؛ وعلامَ خلق الله تعالى هذه الكائنات

١- سورة التكوير، الآية ١و٢.
٢- سورة آل عمران، الآية ١٣٣.
٣- سورة الرحمن، الآية ٣٣.

والمخلوقات، إذ لاشك أنَّ لها دلالةً على أمرٍ أساسيٍّ حساس، ووعينا وإدراكنا لهذا الأمر هو الذي يشكّل حجر الزاوية ويضع لبنة الأساس في بناء معارفنا وتطوير أفكارنا وكياننا الثقافي، وليس ذلك إلاّ رحمة الله تبارك وتعالى التي بها خلق الشّمس والقمر والنّجوم وكلَّ المخلوقات فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١].

وهذا يعني أول ما يعنيه أن رحمته تبارك وتعالى واسعةٌ، فكما أن علم الله سبحانه وتعالى نافذٌ في كلّ شيءٍ كذلك هي رحمته أحاطت ووسعت كلّ شيء، ولعل الواقع المنظور والحقيقة المعلومة بالتفكر العلمي العميق لا تسمح أن نمثل سعة الرحمة الإلهية بمثل البحار وأمواج الأنوار وما إلى ذلك من المحسوسات المرئية والمتصوّرة في حدود تفكر الإنسان، إذ هي أمثلةٌ بسيطةٌ ضعيفةٌ في المقام إذا ما قورنت بها وسعت رحمة الله تبارك وتعالى، وبتعبير آخر يمكن أن نقول: إن هذه الآيات والدلالات - كخلق الشمس والقمر والكواكب - إنْ هي إلا رحمة منه تعالى، لكن الرحمة الرّبانية أوسع وأكبر وأعظم من هذه الآيات كلّها. فالتعبير القرآني الدقيق يقول: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾[٢]. ومنه يتجلى محتوى أبعد وأعمق وتبدو فكرة أدق إذ كل شيء لم يكن مخلوقاً أو موجوداً لولا رحمة الله تعالى،

١- سورة الأعراف، الآية ١٥٦ .

٢- سورة غافر، الآية ٧ .

لأنَّ الله سبحانه هو الرحمن الرحيم، خلق الأشياء برحمته.

وهنا لا بد من الإشارة إلى فكرة أو بصيرة معينة، وهي أن هذه الرحمة الإلهية لها وسيلتها، فالله عزّ وجلّ عندما أراد أن يبعث النور إلى الأرض خلق الشمس وخلق القمر، وجعل الشمس ضياءً والقمر سراجاً منيراً، وحين أراد أن يروي هذه الأرض من عطشها بعث بالسُحب من أقاصي البحار والمحيطات تحمل المياه، ثم أمر بالرياح المبشرات أنْ تحمل هذه الملايين من أطنان المياه إلى أعالي الجو، تلك السحب التي قد تبدو لأوّل وهلة أنها ليست إلّا قطرات من الماء حملت عبر زجر هذه الرياح لتقطع المسافات الشاسعة وآلاف الكيلومترات ثم لتهطل على القمم السامقة الشامخة من الجبال وعلى الصحاري والوديان رواءً: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[١].

هذه وما لا يعدّ ولا يحصى مثلها هي وسائل الرحمة الإلهية، فحين أراد الله أن يخلق الإنسان في هذه الأرض جعل لخلقه الوسيلة، إذ جعل له أباً وأمّاً وسيلتين لخلقه، ولو شاءت الإرادة الإلهية أن ينبت الإنسان من الأرض كما ينبت النبات لكان قد جعل في الأرض الوسيلة لتحقق ذلك، وهو جلّت قدرته حين أراد أن يرزق الإنسان من الخيرات جعل في الأرض وسيلةً لنمو الأشجار والنباتات بما هيّأه تعالى من ماء وتربة ومزارعين.

١- سورة الروم، الآية ٤٦ .

إذن فللّه في خلقه وسائل، ورحمته لها وسائل، فماهي الوسيلة الأساسية المثلى التي خلق الله بها هذا الكون؟ ونحن حين نطرح تساؤلاً عن كيفية حدوث الشمس وتكوّنها على ماهي عليه الآن على واحدٍ من علماء الفضاء فإنه سيجيب بأدلته الخاصّة بأن الشمس كانت مجموعةً من غازاتٍ مثل الهليوم وغيره، ونتيجة جاذبية هذا الكوكب تكثفت هذه الغازات وتكونت الشمس، بل لعل تصور العلماء عن مستقبل المشتري، هذا الكوكب العملاق الذي يدور حوله ستة عشر أو سبعة عشر قمراً؛ بأنه بعد عشرة ملايين أو عشرين مليون سنة أو أكثر أو أقل سيصبح شمساً لما تحدث فيه من التفاعلات والتحولات الذرية التي هي بدورها وسيلة لصيرورته شمساً في المستقبل.

هذا هو أحد الإحتمالات الهامة التي يطرحها علماء الفضاء، فهم بتعليلاتهم يطرحون الأدلة والوسائل والأسباب التي جعل الله تعالى الشمس شمساً والقمر قمراً والأرض أرضاً، بل ويؤكدون بأن كلَّ شيءٍ يُخلق بوسيلةٍ، ومنه يتبادر الى الذهن التساؤل عن وسيلة أصل الخلقة، وأن الله تعالى لما أراد أن يكون هذا الكون وأن يُخلق بوسيلة، فماهي تلك الوسيلة إذن؟

نور محمد أساس الخلق

إرادة الله تبارك وتعالى هي أن يرحمنا، ومشيئته أن يفيض برحمته على هذا الكون وأن يتجلى بأسمائه الحسنى على هذه المخلوقات، فقد شاءت إرادته أن يجعل هذا الخلق وسيلة فخلق نوراً لكنه ربّاه وحسّنه وبلوره ونمّاه فكان وسيلةً لخلقة الكائنات، وذلك النور هو نور نبيّنا محمد ﷺ نور الرحمة. وحين نقول خلقة الكائنات فلا نعني خلقة هذه الأرض فحسب إذ هي - كما سبق لنا القول - ليست إلا ذلك الحرف الصغير في المكتبة العظيمة، او تلك السمكة الصغيرة على شاطئ البحر، بل تلك الحصاة في الصحراء المترامية الأطراف، وإنما نعني مئات المليارات من العناقيد والمجرات التي تضم بدورها المليارات من الأجرام السماوية، ولعل كلمة المليار تبدو للوهلة الأولى بسيطة لن تعدو عن كونها لفظة لسانٍ فحسب، لكن الحقيقة إنَّ المليار الواحد ربّما يستغرق المئات من السنين عدّاً، هذه هي الدنيا، فما بال الإنسان بالآخرة والجنة التي هي أعظم وأوسع، كلّ هذه المخلوقات خُلقتْ بأسماء الله الحسنى. فكيف إذن خلق الله تعالى هذا النور حتى صار رحمة الله الواسعة.

هنا لا بد وأن يكون الذهن مهيّئاً مستعداً لإدراك فحوى الرواية عن الإمام علي بن أبي طالبٍ عليه السلام إذ هكذا روايات يصعب عادةً فهمها، لكننا

وبما تقدم من التمهيد لعلنا نكون وُفقنا لتهيئة المناخ الذهني لاستيعاب بعضٍ من جوانب هذه الرواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم قال:

«إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالَى خَلَقَ نُورَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله قَبْلَ أَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ، والْأَرْضَ، والْعَرْشَ، والْكُرْسِيَّ، واللَّوْحَ، والْقَلَمَ، والْجَنَّةَ، والنَّارَ»[1].

أما ماهو اللوح؟ وماهو الكرسي؟ والعرش؟ فهذا بحث آخر لعلنا نأتي عليه مستقبلاً إن شاء الله.

«وَقَبْلَ أَنْ خَلَقَ آدَمَ ونُوحاً وإِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ ومُوسَى وعِيسَى ودَاوُدَ وسُلَيْمَانَ وكُلَّ مَنْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2].

«وقَبْلَ أَنْ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ وأَرْبَعِ

١- الخصال، ج٢، ص٤٨٢.

٢- سورة الأنعام، الآية٨٤-٨٧.

وعِشْرِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وخَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَعَهُ اثْنَيْ عَشَرَ حِجَاباً».

ولعلَّ هذه الحجب - والله أعلم - هي درجات يرتقي النّبيﷺ عبرها، فما هي هذه الحُجُب؟ إنها:

«حِجَابَ الْقُدْرَةِ، وحِجَابَ الْعَظَمَةِ، وحِجَابَ الْمِنَّةِ، وحِجَابَ الرَّحْمَةِ، وحِجَابَ السَّعَادَةِ، وحِجَابَ الْكَرَامَةِ، وحِجَابَ الْمَنْزِلَةِ، وحِجَابَ الْهِدَايَةِ، وحِجَابَ النُّبُوَّةِ، وحِجَابَ الرِّفْعَةِ، وحِجَابَ الْهَيْبَةِ، وحِجَابَ الشَّفَاعَةِ».

«ثُمَّ حَبَسَ نُورَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي حِجَابِ الْقُدْرَةِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ، وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى"، وفِي حِجَابِ الْعَظَمَةِ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ، وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ عَالِمِ السِّرِّ"، وفي حِجَابِ الْمِنَّةِ عَشْرَةَ آلَافِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ مَنْ هُوَ قَائِمٌ لا يَلْهُو"، وفِي حِجَابِ الرَّحْمَةِ تِسْعَةَ آلَافِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ الرَّفِيعِ الْأَعْلَى" وفي حِجَابِ السَّعَادَةِ ثَمَانِيَةَ آلَافِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ مَنْ هُوَ قَائِمٌ لَا يَسْهُو" وفي حِجَابِ الْكَرَامَةِ سَبْعَةَ آلَافِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ" "سُبْحَانَ مَنْ هُوَ غَنِيٌّ لا يَفْتَقِرُ"، وفِي حِجَابِ

الْمَنْزِلَةِ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبيِّ الْعَلِيِّ الْكَرِيمِ"، وفِي حِجَابِ الْهِدَايَةِ خَمْسَةَ آلاَفِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"، وفِي حِجَابِ النُّبُوَّةِ أَرْبَعَةَ آلاَفِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ"، وفِي حِجَابِ الرِّفْعَةِ ثَلاَثَةَ آلاَفِ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ والْمَلَكُوتِ"، وفِي حِجَابِ الْهَيْبَةِ أَلْفَيْ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ" وفِي حِجَابِ الشَّفَاعَةِ أَلْفَ سَنَةٍ وهُوَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبيِّ الْعَظِيمِ وبِحَمْدِهِ"».

«ثُمَّ أَظْهَرَ عَزَّ وجَلَّ اسْمَهُ عَلَى اللَّوْحِ، وكَانَ عَلَى اللَّوْحِ مُنَوَّراً أَرْبَعَةَ آلاَفِ سَنَةٍ، ثُمَّ أَظْهَرَهُ عَلَى الْعَرْشِ فكَانَ عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ مُثْبَتاً سَبْعَةَ آلاَفِ سَنَةٍ، إِلَى أَنْ وَضَعَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِي صُلْبِ آدَمَ...»[1].

والظاهر إنَّ كلّ حجابٍ من هذه الحُجب هو إسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وكلّ حجاب من هذه الحُجب درجةٌ من درجات القرب إلى الله سبحانه وتعالى، والنّبي ﷺ في كلّ حجابٍ من هذه الحُجب وفي كلّ درجة

---

١ - الخصال، ج٢، ص٤٨٢.

من هذه الدرجات يسبِّح الله وحده، يوحّد الله عزّ وجلّ وينزّهه، فكان النّبي ﷺ أول العابدين في ذلك الكون.

فإذا كانت هناك سماءٌ مبنيّةٌ وأرضٌ مدحيّةٌ، أو كان فلكٌ يدور وبحرٌ يموج ويمور ومياه تجري في هذا العالم كالنيل والفرات وسيحون وجيحون والدانوب والمسبّي وكل البحار والمحيطات، فهي كلّها عبر قناة نبي الرحمة ﷺ، إذ هو الوسيلة للرحمة الإلهية، الوسيلة إلى كلّ الكائنات، إلى الحور العين، إلى الجنة والملائكة الى جبرئيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل عليهم السلام، بل وإلى اللوح والقلم، وأكثر من ذلك إلى الروح وهو أعظم الملائكة.

ونحن أيضاً إذا ما أردنا نعمةً أو رحمةً، إذا أردنا فضيلةً أو تقوى، إذا أردنا كرامةً وتقدماً، إذا أردنا قدرةً وهيبةً، إنما يتحقق كلّ ذلك بوسيلة الرحمة، بنبي الرحمة ﷺ.

وهذه كلّها حجب النور أو بحار النور - كما في رواية أخرى - إذ كلّها أنوارٌ، فالكرامة نورٌ، والهيبة نورٌ، والقدرة نورٌ، والعزة نورٌ، والرحمة نورٌ، والشفاعة نورٌ.

وتلك هي أسماء الله الحسنى التي كوّنت النّبي ﷺ فليس لمن يطلب أحد هذه الأنوار إلّا أن يلتمسه عن طريق النّبي ﷺ نبي الرحمة ووسيلتها، وعن طريق أهل بيته الأطهار عليهم السلام.

ولاريب إنَّ قبساً وومضةً من هذا النور كان نصيب المؤمنين فانتشر عليهم، ودليله الإيمان وحب النّبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

وأيضاً هذا الإلتزام من المؤمنين بولايتهم، الذي يتجلّى بحضور المجالس المعقودة لذكرهم، إذ هذه المجالس روضةٌ من رياض الجنة، ومنهلٌ بين يدي الإنسان يروي منه ضمأه وعطشه، وليس الغرض منها مجرد الحضور البدني والشرود الذهني عن نورها والتفكير بمغريات الحياة ومشاكلها والخروج منها صفر اليدين.

فالمجالس المعقودة – مثلاً – لذكر الرسول الأعظم ﷺ وابنته الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام ولذكر علي والحسن والحسين وسائر الأئمة عليهم السلام إنما هي البساتين التي يجني منها الإنسان ما يلذ له من الثمار وما تصفو به نفسه وتكتمل شخصيّته بتكامل معارفه، وبالتالي تغدو سُلّماً يرتقي به الى المراتب العليا، لذا فالحق أن يقال: إنَّ المؤمن لا يجب أن يكتفي بهذه القطرات من الدموع، وإن كانت هذه الدموع تطفئ ودياناً من نار جهنّم، إلّا أن الدموع المصحوبة بالمعرفة والبصيرة، المستنيرة بالنور النّبوي العظيم، هي التي تأخذ بيد المؤمن، وستكون وسيلةً يجتاز بها الحجب، وبالتالي الحصول على وسيلة الرحمة.

ومن هنا لا بد للإنسان المؤمن أن يكمِّل نوره بنور ولايته، فبها تُقبل الطاعات والعبادات، فكم من صلاةٍ مرفوعة؟ وكم من صلاةٍ مدفوعةٌ؟ وكم منها مقبولٌ؟ وكم منها غير مقبولٍ؟ ذلك مرتبطٌ إرتباطاً وثيقاً لا ينفصم بمقدار النور وبمقدار الولاية وبمقدار التسليم لله تعالى. فصلاة ركعتينٍ يؤديها الإنسان لا تستغرق من الزمن إلّا دقائق هي نفسها الدقائق التي تستغرقها صلاة إمام المتقين علي أمير المؤمنين عليه السلام، لكن الصلاتين في ميزان الأعمال تختلفان للإختلاف الشاسع في مدى المعرفة ومستوى التسليم لله الواحد الأحد، بل وهذه المعرفة وهذا التسليم لا يتمّان إلّا بآيات الله تبارك وتعالى وبأسمائه ومن أسمائه بنوره، وقد تبيّن لكل ذي لبٍّ أنّ الأسماء الحسنى هم أهل البيت الطاهرين عليهم السلام والولاء لهم، والتمسك بنورهم الذي يزيدنا نوراً ومعرفةً بهم وتسليماً لهم وايماناً وتصديقاً بكلماتهم.

٤

النبي الشاهدُ

قال تعالى في وصف النبي ﷺ والثناء عليه:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا۝ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا۝ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا۝ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[١].

يصف القرآن الكريم النّبيَّ الأعظم ﷺ بصفاتٍ كريمةٍ شتّى؛ فهو رحمةٌ للعالمين، وهو مبشرٌ ونذيرٌ، وسراجٌ منيرٌ، ورسولٌ إلى البشرية كافةً.

١- سورة الأحزاب، الآية ٣٩ - ٤٧ .

الشهادة في الطليعة

والصفة التي أريد أن أتحدث عنها في هذا الفصل هي صفة «**الشهادة**»، ففي أكثر من موضعٍ يؤكد القرآن الكريم على أن النّبي ﷺ شاهد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾[1].

بل إنَّ هذه الصفة تأتي في بعض الأحيان في طليعة الصفات التي يثبتها الخالق تعالى للنبي ﷺ كما لاحظنا في الآية السابقة.

ولقد اخترت هذه الصفة لكونها صفةً مشتركةً بين الرسول وبين من يتبعه من المؤمنين؛ فالنّبيُّ ﷺ شاهد على الأمة، والأمة الإسلامية المؤمنة - بدورها - شاهدةٌ على الأمم الأخرى.

وعلى هذا فإنَّ «**الشهادة**» ينبغي أن نقف عندها طويلاً ونتدبر فيها، لأنها الجسر الممتد بيننا وبين رسولنا، وبيننا وبين الأمم، فماذا يعني هذا المصطلح، وماهي أبعاده؟

قبل أن نبيّن معنى هذه الصفة الكريمة في حياة الرسول ﷺ أرى من الضروري أن أمهد لذلك بمقدمةٍ تسهل عملية فهم مغزى هذا المصطلح.

من المعلوم أن الإنسان موجود يختلف عن سائر الموجودات، فآفاقه لا تحد، وحياته ممتدة من الناحيتين؛ الزمانية والمكانية، وعلى الواحد منا أن يعلم في هذا المجال أنّه كان قبل أن يهبط على هذه الأرض في صلب أبيه

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

آدم في الجنّة، والذي كان هو وزوجه حواء ضيفين كريمين على ربهما في مضيفه في الجنّة، وأكرم بها من مضيفٍ.

وقبل أن يكونا كذلك كانت البشرية في عالم الذر، وقبل عالم الذر كانت في عالم الأشباح حيث خلق الله تعالى الأرواح قبل الأبدان بألفي عامٍ[١]، لا يُدرى هل هي من أعوام الدنيا أم الآخرة.

ومن جهةٍ أخرى فبعد حياتنا القصيرة هذه في الدنيا ستكون لنا حياةٌ ممتدةٌ في عالم البرزخ الذي يشير اليه تعالى في قوله: وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[٢].

وبعد عالَم البرزخ سنمثل للحساب في يوم القيامة لمدة خمسين الف عامٍ، ونحن لا نعلم هل سنبقى في القبر لعشرات السنين أم لمئاتٍ أم لآلاف أو ملايين السنين، لأن تاريخ قيام الساعة لا يعلمه إلاّ الله عز وجل لقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾[٣].

فالله هو وحده الذي يمتلك علم الساعة، فلا يجليها لوقتها إلا هو.

١- أنظر الأحاديث بهذا الشأن في: الكافي، ج١، ص٤٣٨، وبصائر الدرجات، ج١، ص٨٧، و: الإختصاص، ص٢٠٢، ومرآة العقول، ج٩، ص٢١.

٢- سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

٣- سورة الأعراف، الآية ١٨٧.

خلودٌ لا مُتَناهٍ

وبعد أنْ تمر الخمسون ألف عامٍ في يوم القيامة يأتي الخلود اللا متناهي، حيث الزمن المطلق، وحيث يقف التفكير عاجزاً كليلاً عن إكتناه معنى الخلود، فهل يستطيع الواحد منا أن يعرف الخلود وأن يقيسه حتى لو كانت لديه أضخم العقول الالكترونية وأكثرها دقةً؟!

وأما عن العمق المكاني، فيكفيك أن تعرف أنّك جزءٌ من أرضٍ هي جزءٌ من منظومةٍ، والمنظومة بدورها هي جزءٌ من ملايين المجرات التي لا يعرف الإنسان عنها شيئاً!

ترى ماذا يعني قول الله عز وجل في القرآن الكريم عندما يقول عن رسوله الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

فما هو العالَمون؟ إنه عالم الوجود بما فيه من ملايين المنظومات والمجرات، ورسول الله ﷺ جاء رحمةً لهذه العوالم كلّها، فحدود الإنسان - إذن - لا تنتهي.

مخزن طاقاتٍ هائلة

وإذا ما غضضنا النظر عن هذا الحساب التجريدي الفلسفي، وقِسنا الأمور بمقاييسَ ماديةٍ محدودةٍ كما تعودت على ذلك أذهاننا، رأينا أنَّ الإنسان يمتلك من الطاقات والقدرات ما لا يمتلكه أي كائنٍ آخرٍ؛ فهو

١- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

يستطيع أن يصبر على الحر والبرد أكثر من أي حيوانٍ آخرٍ، ويستطيع أن يعدو أسرع من الغزلان والفهود، كما أن هذا الإنسان الذي يبدو بسيطاً إستطاع الآن أن يصنع أسلحة تعمل بأشعة الليزر، وبامكانها أن تفني الكرة الأرضية، كما وبعث مركباته إلى الكواكب الأخرى ومن جملتها القمر، وهكذا فقد دخل في أعماق الفضاء، وهزم حاجز المسافات.

الشيطان آفة الانسان

ومع كل ذلك، ومع وجود هذه القدرات الخارقة فقد سُلِّط على هذا الإنسان الشيطان الذي يقيم من حوله جدراناً قد لا يستطيع أن يخترقها، ترى ماهو هذا الجدار؟ وماهي تلك الزنزانة التي يعتقل الشيطان الإنسان فيها فيوحي له باليأس، وضعف الإرادة، وعدم الثقة بالنفس؟ فالشيطان يوحي للإنسان بأنه كائنٌ حقيرٌ، فيمنعه بذلك من التقدم، والإنطلاق، ومن أن يجعل من نفسه إنساناً كاملاً.

هل فَكَّرَ الواحد منا - ولو للحظات - لماذا لا يصلي صلاة الليل؟ ولا يكون كأبي ذرٍ، وسلمانٍ، وعمارٍ وغيرهم من القمم الشاهقة في البطولة والإنسانية؟ ولماذا لا يتبع سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله؟

إن هذه تساؤلات يستطيع كلّ واحدٍ منّا أن يوجهها الى نفسه، فلنفكر ولنتدبر في نفوسنا لكي نعرف نقاط الضعف فيها، والثغرات التي ينفذ

من خلالها الشيطان إليها، فالشيطان يخيفك، وعندما تريد على سبيل المثال أن تقوم الليل لتبتهل إلى الله - سبحانه وتعالى - فإنه يوحي إليك بأنك بحاجةٍ الى الراحة والنوم، لأن أمامك في الغد مشاكل، وأعمالاً، ودراسةً، وهكذا الحال عندما تريد أن تقوم بعملٍ جبارٍ، كأن تتحدى الطغاة وضغوطهم، فإنه يثبِّط من عزيمتك من خلال إخافتك.

وعندما تريد أن تصبح إنساناً تقياً طاهراً فإنَّ الشيطان يقف لك بالمرصاد أيضاً، فيوحي لك بأنَّ الناس جميعهم يكذبون ويحتالون، فلماذا لا تكون مثلهم لكي لا تأكلك الذئاب؟

اليأس سلاحٌ شيطاني

إنَّ السلاح الفاعل للشيطان هو أنْ يبعث اليأس في نفسك، ويسجنك في زنزانة استصغار واحتقار قدراتك وطاقاتك، فيوحي لك بأنك لا تستطيع أن تتبع الشخصيات المثالية العظيمة... ترى كيف نستطيع أن نقاوم هذا السلاح ونبطل مفعوله؟

إنّ البشرية - مذ ظهرت - كانت تكرّم الأبطال، وتقدّس البطولات، لأن الأبطال هم الذين يخترقون حاجز اليأس، ويثبتون للناس أنّ باستطاعتهم أن يبلغوا ما يريدونه، وهذا هو السبب الذي دفع البشرية إلى أن تكرِّم وتقدِّر النوابغ والعلماء الذين قدموا خدمات جليلة لها، وذلك

لأنهم استطاعوا إختراق الحواجز الشيطانية.

إنّ الله جلت قدرته أراد أن يمنح للبشرية القدرة على تحطيم حواجز اليأس والضعف والمسكنة والحقارة، فبعث رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، فإذا به يصبح شاهداً، بشهادة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[١].

ماهي شهادة النّبي ﷺ؟

ترى ماهي شهادة النّبي ﷺ؟ إنّ شهادته هذه تتمثل في أنّه نهض لوحده ضد الجاهلية التي أطبقت على الأرض، فالأصنام كانت تُعبد حتى في بيت الله الحرام، فكان الناس يعيشون في الظلم. حيث الامبراطورية الفارسية الظالمة من جهة، واليونانية الرومانية الجائرة من جهة أخرى، وحيث الجهل والمرض والفقر مخيمٌ في كلّ مكانٍ ... في هذه الفترة بالذات بعث الله عزّ وجلّ النّبي الأعظم ﷺ لا لكي يحطم الأصنام في الجزيرة العربية فحسب، وإنما لكي يؤسس دولةً اسلاميةً تكون القدوة للدول الإسلامية الأخرى في سائر العصور، وليكون رحمةً للعالمين، ويحرك البشرية باتجاه الحضارة والرقي والتكامل، لكي يكون دين الله هو السائد على الدين كلّه ولو كره المشركون.

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

وهكذا كان رسول الله ﷺ شاهداً على البشرية، وكل لحظةٍ من لحظات عمره الشريف المبارك كانت سراجاً منيراً للبشرية، ورحمةً لها، وعندما يعود إلى مكة بعد هجرته إلى المدينة وتأسيسه للمجتمع الإسلامي فيها يقول لأهلها وقلبه مفعم بالرحمة والحبّ، والتسامح: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[١]، رغم أنهم حاربوه، وأخرجوه من بلده، وفرضوا عليه ذلك الحصار الجائر الذي أودى بحياة إثنين من أهم حُماته، ومن أعز الناس عليه، ألَا وهما: زوجته خديجة الكبرى، وعمّه أبو طالبٍ عليهما السلام.

أخلاقٌ استوعبت البشرية

هذا الخلق العظيم، وهذه الرحمة التي استوعبت البشرية كلّها، كانت تجمع إلى جانبها الشجاعة الفائقة، والبطولة العديمة النظير، إلى درجة أنّ الإمام علياً عليه السلام الذي يُضرب به المثل في الشجاعة كان يقول: «**كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْه**»[٢].

وعندما يفقد رسول الله ﷺ حاميه المؤمنَ أبا طالبٍ عليه السلام، يخرج ﷺ بإسلامه من مكة إلى الطائف لعله يجد في هذه المنطقة من يحميه، وإذا بأهالي هذه المدينة يستقبلونه أسوأ إستقبال حيث أخذوا يرضخونه

١- الكافي، ج٣، ص٥١٣.

٢- نهج البلاغة، من غريب كلامه، الرقم٩.

بالحجارة حتى أدموا قدميه[١].

ومع كلّ ذلك فقد كان ﷺ يرهق نفسه بالعبادة والتقرب الى الله عزَّ وجل. يروي أبو بصير عن الإمام الباقر عليه السلام:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ عَائِشَةَ لَيْلَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ! أَ لَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً». قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ [في الصلاة]، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞﴾[٢]».

وقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الخلق العظيم، يقول أنس مالك:

كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ، فجذبه بردائه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البرد من شدة جذبته، ثم قال: يا محمّد، مُر لي من مال الله الّذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[٣].

١- أنظر تفاصيل الحدث في: بحار الأنوار، ج١٩، باب دخوله الشعب وما جرى بعده الى الهجرة، ص٥،ح٥.
٢- سورة طه، الآيتان:١-٢.
٣- حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار، ج١، ص٣٠٧، عن: صحيح مسلم، ج٢، ص٧٣٠، ح١٢٨، و: صحيح البخاري، ج٤، ص١١٥.

وروى أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَى شَفِيرِ وَادٍ، فَأَقْبَلَ سَيْلٌ فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَرَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمُونَ قِيَامٌ عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي يَنْتَظِرُونَ مَتَى يَنْقَطِعُ السَّيْلُ. فَقَالَ الرَجُلُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِقَوْمِهِ: أَنَا أَقْتُلُ مُحَمَّداً. فَجَاءَ وَشَدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يُنْجِيكَ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ. فَنَسَفَهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَنْ فَرَسِهِ فَسَقَطَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَ السَّيْفَ وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: مَنْ يُنْجِيكَ مِنِّي يَا غَوْرَثُ؟ فَقَالَ: جُودُكَ وَكَرَمُكَ يَا مُحَمَّدُ. فَتَرَكَهُ. فَقَامَ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَكْرَم»[1].

ومن خلقه العظيم أيضاً أنه أكرم إبنة حاتم الطائي لأنَّ أباها كان كريماً، وقال لها: «**لَو كَانَ أبُوكَ مُسْلِماً لَترَحَّمْنَا عَلَيْهِ**»[2].

ومن عظيم سجاياه أيضاً أنه كان يدعو لقومه قائلاً: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي**

١- الكافي، ج٨، ص١٢٧، ح٩٧.
٢- كنز العمال، ج٣، ص٦٦٤.

فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون»[١] رغم أنهم كانوا يؤذونه، ويصبُّون عليه وعلى أصحابه الويلات والعذاب.

كل ذلك لكي يصبح الرسول ﷺ شاهداً علينا، ويكون قدوة لنا كما يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢].

وهذه الشخصية العظيمة إنّما تكون قدوةً لنا إذا سرنا على خطها، وكنا في مستوى التأسي والإقتداء بها.

١- بحار الأنوار،٣٥، ص١٧٧.

٢- الأحزاب، الآية ٢١ .

٥
قدوةُ المؤمنين

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليكون أشرف وأكمل وأسمى خليقته على هذه البسيطة، بل من أجل أن يستضيفه إلى دار الخلد والنعيم، إلى الجنة. كما سخَّر له كافة الكائنات والمخلوقات الأخرى وجعلها في خدمته ومن أجله، حتى جعل الملائكة المنزَّهة من كافة الفواحش والذنوب في خدمة هذا الإنسان، بل فوَّض الله تعالى الإنسان قيادة وخلافة الأرض ما لم يفوض أيّاً من مخلوقاته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾[1].. لماذا؟ هل لأن هذا الإنسان أضخم وأكبر حجماً وطولاً من هذه الجبال والكواكب والمعادن و..؟ كلا.

إن الله سبحانه فعل ذلك بعد ما زوَّد الإنسان بنور العقل وقوة الإرادة، ومنحه قدرة الإختبار والإنتخاب؛ إن شاء إختار سبيل الهدى، وإن شاء

١- سورة البقرة، الآية ٣٠.

إختار طريق الضلال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

لذا حينما يتجاوز هذا الإنسان بإرادته العقبة ويقتحمها ويتسامى، فإنه يستحق العظمة، فيباهي ربّنا ملائكته به.

الإنسانُ أسمى من الملائكةِ

ومن هم الملائكة؟ إنهم مَن بأيديهم زمام إدارة حركة الرياح، والشمس، والسحاب، والأرض، وسائر الكواكب والسيَّارات، بقدرة الباري عز وجل، بالرغم من ذلك فإن الله يجلّ شأنَ عبده الإنسان ويفضله على ملائكته.

بلى.. إن ذلك العبد الذي إرتخت جوارحه في جوف الليل، وفي تلك الليلة الباردة التي سكنت فيها الأنفاس، وهام ظلام الليل على أهله، وهو يرقد على فراشه الوثير، ثم تدغدغه ساعة اللقاء والوصل بمقام العزة والربوبية، فينتزع نفسه قبل أذان الفجر من فراشه ليتوضأ، ثم ليستقبل القبلة مناجياً المولى القوي العزيز، يطلب منه العون والقرب والكمال.. إنه يركع ويسجد ويخشع قلبه خوفاً من غضب الله، ورجاءً في ثوابه وجزيل آلائه .. هذا الإنسان لا يحق للملائكة أن تشكو الله تفضيله عليها، ذلك لأنَّ هذا الإنسان المؤمن قد استجمع كافة عوامل الضعف في وجوده

١- سورة الإنسان، الآية ٣.

المادي وجسده النحيف، إلّا أنه قويٌّ بإرادته، فلهذا يقتحم كافة عقبات الضعف والهوان المادي بتوكّله على الله القوي العزيز ليدخل في حصن الرّب، ورياض الرحمة الربّانية.

سباق التكامل

إنّ الملائكة لم تعانِ من عوامل الضعف والهوى، حتى تتسلق مدارج الكمال والرقي والقرب الإلهي خطوةً.. خطوةً، بينما الإنسان يصارع بإرادته كل يوم، بل كل لحظة، كافة عوامل الضعف الموضوعة أمام مسيرته في هذه الحياة كيما يحرز على قصب السبق رجاءً وطمعاً في رحمة الله اللا متناهية.

إذن؛ إنّ قصة مسيرة الإنسان على وجه هذا الكوكب الأرضي، هي قصة صراع الإرادة وسباق التكامل والرقي البشري.. ففي هذه المسيرة ينبغي وجود بعض القدوات والنماذج الطيبة التي تستدعي الإقتداء بها والوصول عبرها الى سلالم الكمالات الإنسانية، وذلك لما تتمتع به هذه القدوات من صفاتٍ انسانيةٍ عاليةٍ تستحق التأمل والإعتبار.

ومن هنا يتجلّى أحد جوانب مهام الأنبياء والرسل والأئمة المعصومين عليهم السلام، كيما يكونوا قدوات واقعية وميدانية ونماذج متحركة وحية، وترجماناً لفحوى التعاليم والقيم الإلهية أمام أنظار الناس.

القدوة.. ضرورةٌ

إنّ هؤلاء الأنبياء العظام والقدوات المباركة عرفوا قدر حياتهم ووجودهم فتسابقوا صوب نعيم الباري عز وجل، فكانوا ينظرون إلى الحياة باعتبارها جسراً وطريقاً للوصول إلى الجنّة، بل كانوا يستشعرون الجنة في الدنيا، وكذلك يتحسَّسون عذاب النار وهم يعيشون حياة الدنيا.

من هنا يتساءل المرء: ما الذي حدى بهؤلاء القدوات العظام إلى أن يقضوا كلّ لحظةٍ من لحظات حياتهم في طاعة وذكر الله، سواءً في نهارهم أو ليلهم؟ لقد كان نهارهم مجالاً لهداية الناس ووعظهم وإدارتهم، والدفاع عن حريم القيم الإلهية والوقوف في وجه الأعداء، وليلهم كان فسحةً طيبةً لمراجعة الذات والنفس والتهجُّد لله سبحانه.. إنهم استشعروا لذيد نعيم الجنة ومدارج الآخرة، فأصبحت حياتهم كلّها أخرويةً.

لقد كانوا على يقينٍ من أنَّ ثمن هذا الجسد وهذه الروح هو الجنة، لقد عرفوا عظمة الجنة وبيوتها المنيفة التي أُعِدَّت للمؤمنين والصالحين.. تلك البيوت التي يمكن لأبسط الناس إيماناً أن يقري ويستضيف جميع الخلائق في بيته الذي حباه الله جزاءً على عمله الصالح في الدنيا.

إنّ بيتاً واحداً من بيوت الجنّة يحوي على بساتينَ خضراء وموائد مفروشة وجوارٍ وغلمانٍ ما لا يحصي عددهم إلّا الله، فمن يرغب أن يترك

هذا النعيم الخالد في قبالة لذائذ زائلة في الدنيا يتبعها نار جهنم؟.. نار جهنم وبيوتها الضيقة التي لا تتسع إلّا على قدر مساحة أكوامٍ من لحوم وعظام البشر المتراكمة، وهي تستغيث وتختنق من شدة العذاب!

لذا يفترض علينا أن نجعل من حياة كافة أنبياء الله والأئمة المعصومينعليهم السلام وخاصة نبينا الأكرم محمد ﷺ قدوة في حياتنا، ونجعل مسيرته خريطةً متكاملةً أمامنا، ونسعى من أجل أن نحذو حذوه ونعمل بهداه، كما فعل الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في اتِّباعه الكامل لحياة الرسولﷺ، فكان يتبعه كما يتبع الفصيل لأمه، يقول عليه السلام: «**لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ**»[١].

النّبي الأكرم خير قدوةٍ

إنَّ هذا الرسول الأكرم ﷺ الذي جعله الباري أفضل خلقه وخاتم أنبيائه، وأعز خلقٍ من مخلوقاته حتى قال في حديثٍ قدسيٍ: «**لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ**»[٢]، نراه يُتْعِب ويُرْهِق نفسه في جوف الليل، رجاءً في الثّواب والتقرب إليه. فقد كان ﷺ يقف متهجِّداً في الليل حتى تتورم

١- نهج البلاغة [صبحي الصالح]، ص٣٠٠.
٢- بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٤٠٦.

قدماه[١]، وكان ﷺ له حبلٌ يتعلق به حتى لا يقع من شدة التعب، وإذا جاعﷺ يشدّ حجر المجاعة على بطنه[٢]، وهو مالكٌ للمال ولكن ينفقه في سبيل الله.. هذا ناهيك عن عظيم خلقه وشدة حلمه وصبره على أذى قومه له.

حقاً نتساءل: إذا كان الرسول العظيم يفعل هكذا مع جسده طاعةً لله، فماذا سوف يكون حالي وحالك أنت أيّها المؤمن؟!

إنَّ من تشغّله كلّ ليلة برامج التلفزيون والبث الفضائي، ثم يهوي بعدها إلى فراشه، حتى يتحول - حسب تعبير الأحاديث الشريفة - إلى «**جيفةٍ**»[٣]، فهذا حاله حال الغافلين.

كثيرٌ من الناس يشكون من الأحلام المزعجة التي تتعقبهم بالليل.. فهذا يرى الشرطة تطارده، وذاك يحلم بالبيع والشراء والخسارة، وذاك يرى الدائنين يهجمون عليه ليخنقوه.. فالسبب لذلك يرجع إلى أنَّ هؤلاء يعيشون على مدار اليوم هموم المعيشة والدنيا فقط.

لا بد أن نجعل للقرآن وتلاوته والصلاة وذكر الله مساحةً تتسع لها

---

١ - قال الإمام زين العابدين ﵇ عن عبادة جده رسول الله ﷺ: «انَّ جَدِّي رَسُولَ الله ﷺ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَلَمْ يَدَعِ الِاجْتِهَادَ لَهُ، وَتَعَبَّدَ- بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي- حَتَّى انْتَفَخَ السَّاقُ وَوَرِمَ الْقَدَمُ، وَقِيلَ لَهُ: أَ تَفْعَلُ هَذَا وقَدْ غُفِرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ! قَالَ: أَ فَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً.» [الأمالي للطوسي، ص٦٣٧].

٢ - الأمالي [للصدوق]، المجلس ٩٢، ص٧٣٣.

٣ -قال الإمام علي ﵇: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ طُولَ اللَّيْلِ كَالْجِيفَةِ الْمُلْقَاةِ وَأُمِرَ بِالْقِيَامِ مِنَ اللَّيْلِ وَالتَّهَجُّدِ بِالصَّلَاةِ» [دعائم الإسلام، ج١، ص٢١١].

أوقاتنا التي تذهب كلّ يومٍ دون رجعة، لا بد أن نروِّح أنفسنا بتلاوة ذكر الله قبل أن ننام، ولا بد أن نعيش الآخرة والموت كلّ يوم.. أن نزور المقابر ونترقب مصيرنا الذي سوف نؤوب إليه.. أليس من الأعمال المستحبة أن يُعِدَّ ويحفر الإنسان قبره قبل موته ثم ينام فيه مستعداً لساعة الأجل الحاسمة؟

لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك الإمام الزاهد العابد – كما يقول هو عليه السلام – يدرِّس حياة الرسول ﷺ للآخرين، بالتركيز على مغازيه ﷺ من بين سيرته، فيقول: «**كُنّا نُعَلِّمُ مَغَازِي النَّبِي ﷺ كَمَا نُعَلِّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآن**»[1].

فإذا كانت حياة الرسول عامة هي جملة دروس يعلِّمها الإمام السجاد عليه السلام للسائرين من أصحابه وأهل البيت، فكيف لا تكون منهجاً وخريطة عمل لنا جميعاً؟

لقد قرأت في كتاب (بحار الأنوار) روايات عديدة حول كيفية شرب الماء عند النبي ﷺ فلقد كان ﷺ يطبق آدابا كثيرة لدى شربه للماء[2].. وما هذه الأمراض التي تصيب المعدة والكبد والكلية والأثنى عشري و... إلّا بسبب عدم مراعاتنا لآداب الإسلام في الأكل والشرب والنوم. إن

١- البداية والنهاية [ابن كثير]، ج٣، ص٢٩٧.

٢- أنظر: بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٤٦ (في صفة أخلاقه في مشربه ﷺ).

إنحرافاتنا الحياتية تكمن في حدوث الفجوة والفاصلة بيننا وبين رسولنا الأكرم والائمة المعصومين عليه وعليهم السلام، فانقطعنا عن فيض نورهم وهداهم، كما ينطفئ المصباح عندما ينقطع التيار الكهربائي عنه.

لماذا إلغاء دور القدوة؟

إن جملة من الناس عندما تسألهم لماذا لا تقتدون بالرسول الأكرم ﷺ والأئمة عليهم السلام يجيبك قائلا: لا يمكن لنا أن نكون مثلهم، متناسين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

ثم كيف لا يمكن لنا إتّباعهم والإقتداء بسيرتهم وقد جعلهم الله لنا أسوةً حسنةً، وكيف يقول الإمام علي عليه السلام: «**أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ**»[3].

وإذا كنا نبرّر لأنفسنا بأنَّ هؤلاء الرسل والإئمة عليهم السلام معصومون، فما بالنا بالصّديقة زينب عليها السلام، وسيدنا العباس عليه السلام، وعلي الأكبر عليه السلام، والقاسم بن الحسن عليه السلام، وكذلك أصحاب الرسول والأئمة عليهم السلام، كأبي ذر، والمقداد، وسلمان، وحبيب ابن مظاهر الأسدي؟ وماذا نقول في علماء الدين العظام

١- سورة الكهف، الآية ١١٠.
٢- سورة الأحزاب، الآية ٢١.
٣- نهج البلاغة، كتاب ٤٥.

الذين ينتهجون سيرة الحق والتقوى؟ لماذا يصرّ البعض على إلغاء دور القدوة في الحياة؟! وفيما إذا رأينا قائداً حياً ينفع الأمة (قد لا نؤمن به شخصياً مثلا).. نضع أمامه شتى العراقيل ونتفرق عنه.. وقسْ على ذلك الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأنفسهم الغالية في هذا الطريق المبارك.

شروط الإقتداء

أنظروا إلى الطريقة الجميلة التي يتحدث عنها ربّنا في سورة الأحزاب حيث يبدأ بذكر النّبي ﷺ أولاً ثم ينتهي بذكر المجاهدين والشهداء. يقول ربنا:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

أي إنّ هناك ثلاثة شروط للإقتداء بالرسول حسبما يضعها القرآن الكريم في هذه الآية المباركة:

الأول والثاني: أن نرجو الله واليوم الآخر ونعتقد بأنّهما حقٌّ، وأنّ هذه الدنيا ليست نهاية حياتنا ومصيرنا، بل هي بداية مسيرتنا إلى دار الخلد.

الثالث: أن لا نغفل عن ذكر الله، سواءً في السوق والتجارة، أو في ساحة الحرب. ويضرب القرآن مثلاً في هذا الصدد فيقول:

١- سورة الأحزاب، الآية ٢١.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾[١]، أي الإيمان بالله والتسليم للقيادة الربّانية.

إنَّ المؤمنين لا يلومون الرسول على شدة الوطيس وزحمة المشاكل، بل يسارعون إلى مساندة القيادة ودعمها. فالذي يريد أن يتقدم يجب أن يعطي ويستقيم. ثم يقول ربّنا:

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[٢].

فالرجل الذي يُرزق الشهادة أو الذي يترقب وينتظر الشهادة هما على حدٍ سواءٍ: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[٣].

١- سورة الأحزاب، الآية ٢٢.
٢- سورة الأحزاب، الآية ٢٣.
٣- سورة الأحزاب، الآية ٢٤.

٦

الصلاة على النّبي وآله المعاني والدَّلالات

من أعظم التُّحف والهدايا والكرامات التي فضّل بها ربّنا سبحانه وتعالى المسلمين، كرامة الصلاة على محمد وآله الأطهار.

فما هي حقيقة هذه الصلاة، ولماذا أُمِرنَا أن نصلّي على نبيّنا ﷺ كلّما ذُكِر اسمه، وخصوصاً في المواسم والمناسبات المباركة؟

المعاني المختلفة للصلاة

للإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ الصلاة - لغةً - هي التعطّف، والترؤّف، والتعبير عن الحب، والحنان، والعطف لدى الإنسان.. وعندما تكون الصلاة من الرّب للعبد، فإنَّ هذا يعني أن الله عز وجل يعطف، ويترحّم، ويتحنّن على عبده. وعندما تكون الصلاة من الملائكة على العباد المؤمنين، فانّ هذا يعني أنّ الملائكة تستغفر وتدعو لهم، وتسدّدهم،

وتزكّيهم، وتعصمهم من الأخطاء. وعندما تكون الصلاة من العبد لربّه، فانّ هذه الصلاة تعني الدعاء، والتضرّع، والتبتّل.

إنّ كلمة الصلاة تعني في ذاتها معنىً واحداً، إلّا أنّ هذه التطبيقات والتأويلات المختلفة تطرأ عليها بحسب موقع الفاعل لها. وعلى سبيل المثال فإنّ كلمة (إفعل) تمثّل صيغة الأمر، وعندما تكون من العالي إلى الداني فإنّها تكون أمراً، ولكنها عندما تصدر من الشخص إلى نظيره تكون رجاءً، وعندما تصدر من الإنسان لمن فوقه تكون دعاءً وطلباً.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الصلاة، فعندما تكون من الإنسان لله كهذه الصلاة التي نصلّيها فإنها تعني حالة من الدعاء، ولذلك قال بعض علماء اللغة: إنَّ معنى الصلاة الدعاء، وهنا وقفوا حائرين؛ فإذا كانت الصلاة تعني الدعاء، فما معنى صلاة الله على عباده، وما معنى صلاة الملائكة عليهم، ولماذا نجد نفس هذه الكلمة تتكرّر مع أنّ استخدام المشترك اللفظي لا يجوز في آنٍ واحدٍ في معنيين مختلفين كما يقول علماء الأصول؟

ولحل هذا الإشكال نقول: إنَّ الصلاة لا تعني الدعاء فحسب، بل إنَّ معناها أيضاً التعطف، أي تعطّف الإنسان أمام ربّه، والعلاقة التي توصلنا الى الله تعالى، أو طبيعة الرابطة والصلة بين العبد وبين ربّه، فمن جانب العبد تعني الدعاء.

ترى هل بإمكان الإنسان أن يطالب الله - جلّ جلاله - بشيء، وهل له على ربّه حق فيطالبه به، وهل له حجّة فيحتجّ بها على ربّه؟

كلا بالطبع، فحتى الشكر الذي نقدّمه للخالق لا يمكننا أن نقدّمه إلّا بإعتباره يتطلّب منّا مزيداً من الشكر. أوليس الشكر باللسان، فممّن هذا اللسان، أوليس من الله؟ أوليس الشكر بجوارح الجسم، وجوانح القلب، وقدرات الإنسان التي هي كلّها مملوكة لله تبارك وتعالى؟ أوليس الشكر بتوفيق منه عزّ وجل؟ إذن فحتى لو حمدنا الله وشكرناه وسبّحناه، فإنّ له علينا حجّة، وله علينا منّة، لأنّه وفقنا إلى شكره.

الصلاة على النّبي وآله

أما الصلاة التي ندعو بها لرسول الله ﷺ فقد أمرنا ربّنا بها في سورة الأحزاب، وهي السورة التي خُصِّصَت لبيان مكرمات النّبي ﷺ. وفي هذه السورة نجد أيضاً الميزات التي تميّز بها رسول الله ﷺ، والأحكام التي إختصّ بها، ونجد فيها - بالإضافة إلى ذلك - آية التطهير التي نزلت في أهل بيت رسول الله، وذريته الذين ساروا على دربه:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[1].

١- سور الأحزاب، الآية ٣٣.

وبناءً على ذلك فقد خُصّصت هذه السورة المباركة لبيان علاقة الأمة بالقيادة الرسالية، وخصوصاً بقيادة الرسول الأعظم وأهل بيته عليهم السلام، فهي سورة النّبي وأئمة الهدى، حيث يقول عز وجل فيها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1].

فما هي هذه الصلاة، وماهو معناها؟

قبل كلّ شيءٍ لا بد من تصحيح مسار الثقافة الإنسانية عبر القرون وإلى الأبد، فكلّما تورط الإنسان في انحرافٍ أخلاقيٍ جاء القرآن ليصلحه، وليكون شفاءً وعلاجاً ونجاةً له من تلك الضلالة وذلك الإنحراف. ومن هنا لا بد أن نقول: إنّ هذه المكرمة - مكرمة الصلاة على النّبي وآله- هي التي خُصَّ بها المسلمون دون غيرهم، لأنها وحدها تحمل في طياتها كلّ معاني العقيدة الإيمانية السليمة، ورفض الأفكار الباطلة.

الضّلالات الشيطانية للبشر

ومن أبرز الضلالات التي وقع فيها البشر بوحيٍ من الشيطان وتابعيه ضلالتان هما:

١- سور الأحزاب، الآية ٥٦.

١ - الإعتقاد بالغلو

حيث يعتقد البعض بأنّ الإنسان يمكنه أن يبلغ درجة الألوهية بمجرد إنتمائه إلى شخصٍ مقرَّبٍ من الله جلّ وعلا. فاليهود إنّما قالوا: نحن أبناء الله، لإنّهم زعموا أنّ إنتماءَهم الى موسى بن عمران عليه السلام وإلى بني إسرائيل، يعطيهم الحق بأن يفعلوا ما يشاؤون.

هذا الغلو مرفوضٌ في الإسلام، فنحن عندما نكنّ الحب لرسول الله ﷺ ونكرمه، فإنما نفعل ذلك عبر الدعاء إلى الله تعالى بأن يصلّي على نبيّه. ومعنى الدعاء إلى الله سبحانه هو أنّك - أيّها الإنسان المسلم - عندما تريد أن توجد علاقةً بينك وبين رسول الله ﷺ فلا بد أن تكون هذه العلاقة في إطار توحيد الخالق؛ أي إنَّ الرسول ﷺ لايمكن أن يكون إلاّ عبداً لله تعالى، فلا تَغْلُ في دينك كما غلا قبلك اليهود والنصارى، ولذلك نجد في هذه السورة (الأحزاب) قوله سبحانه:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

أي لا تنسبوا إلى رسول الله ﷺ صفة الأبوة لأحدٍ منكم فتغلو في دينكم كما فعلت اليهود والنصارى من قبل.

---

١ - سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

٢- نفي الحاجة إلى الوسيلة

وهناك ضلالة أخرى تقول: لماذا نحتاج من أجل الإتصال بربّنا إلى بابٍ ووسيلةٍ؟ أوليس الدين علاقة بين القلب والربّ؟ فتكفينا - إذن - هذه العلاقة، ولسنا بحاجةٍ إلى رسولٍ أو إمامٍ أو قائدٍ وملهمٍ دينيٍ، بل يكفينا أن نعقد علاقةً بيننا وبين ربّنا فنركع ونسجد ونتعبد له ثم ينتهي الأمر.

وقد جاء القرآن الكريم لينسف هذه الضلالة أيضاً وليقول: كلا؛ إذا أردتَ التقرُّب والعروج الى الله، فلا بد من أن تتقرّب اليه عبر رسوله، وأن تصلّي عليه حتى تتقرّب إليه. فرسول الله هو وسيلتك إلى ربّك، ومعراجك إليه. ولذلك جاء في الأحاديث أنّ العبد إذا أراد أن تُقبلَ دعوته ويستجاب نداؤه، فليقدّم قبل الدعاء الصلاة على محمد ﷺ وآله الكرام، ويختم دعاءه بذلك[١].

ولكن عليك أن لا تزعم عبر هذه الوسيلة أنّ بإمكانك أن تتخطّى المراحل، وتتجاوز الوسائل، فالله أولاً، ثم رسوله، ثم أهل بيته، ثم الذين يمثلون خط رسول الله ﷺ، وخط أهل البيت عليهم السلام، فهؤلاء هم وسائلك إلى

١- قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةٌ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَخْتِمُ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَقْبَلَ الطَّرَفَيْنِ وَيَدَعَ الْوَسَطَ، إِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ لَا تُحْجَبُ عَنْهُ» [الكافي، ج٢، ص٤٩٤، ح١٦].

الله عزّ وجل حيث يأمرنا القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[١] .

الحبّ دافع الإنسان إلى الطاعة

وثمة حكمة تتجلى لنا عندما نعرف أنّ علماء النفس بحثوا كثيراً في طبيعة ظاهرة الطاعة لدى الإنسان، والدوافع والنوازع التي تدعوه إلى طاعة شخص من الأشخاص، وحينئذٍ اكتشفوا أن الإنسان إنّما يطيع من يحبّه، ولذلك قالوا إنّ الطفل الرضيع إنّما يتّبع أمه لحبه لها، وحبّها له، وليس لجبرها إيّاه، أو خوفه منها، ولذلك أدركوا أنّ أعظم وسيلةٍ تدفعك إلى الطاعة هي الحب، ونحن - بدورنا - لا بد أن نطيع رسول الله، ورسالته، وسيرته، وسنّته من خلال حبّنا له.

كيف نتّبع رسول الله؟

ترى كيف نتّبع رسول الله ﷺ، وكيف نتّبع آل بيته الذين هم ضمائر الدين، وقدوات المؤمنين، وأئمة المتقين؟

إنّ بإمكاننا أن نفعل ذلك عبر حبّهم، والحبّ - كأيّ شيءٍ آخرٍ - بحاجة إلى تنمية ورعاية. ونحن نستطيع أن ننمّيه من خلال الصلاة عليهم؛ فعندما نصلّي على النّبي وآله، وعندما نكرّر هذه الكلمة في صلواتنا وبعدها وقبلها وفي مختلف الحالات فإنّنا نزداد حبّاً لهم؛ وعندما نزداد حبّاً

١- سورة المائدة، الآية ٣٥.

لهم فإنّنا سنزداد حبّاً لبرامجهم، ومناهجهم، وسنّتهم، وبالتالي فإنّنا سنحظى بتوفيق الخالق جلّ وعلا.

أحاديث في فضل الصلاة

وفي نهاية هذا الفصل أرى من الضروري أن أنقل جملة أحاديثٍ في أهمية وفضل الصلاة على الرسول وآله عليه وعليهم السلام:

١- عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا:

«مَا فِي الْمِيزَانِ شَيْءٌ أَثْقَلَ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَتُوضَعُ أَعْمَالُهُ فِي الْمِيزَانِ فَتَمِيلُ بِهِ، فَيُخْرِجُ صلى الله عليه وآله الصَّلاَةَ عَلَيْهِ فَيَضَعُهَا فِي مِيزَانِهِ فَيَرْجَحُ بِهِ»[١].

٢- وروى عبد الله بن سنانٍ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول:

«قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: ارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالصَّلاَةِ عَلَيَّ فَإِنَّهَا تَذْهَبُ بِالنِّفَاقِ»[٢].

٣- وروى أبو بصيرٍ، عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، قال:

«إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فَأَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَلْفَ صَلاَةٍ فِي أَلْفِ صَفٍّ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَلَمْ

١- الكافي، ج ٢، ص ٤٩٤.

٢- المصدر، ص ٤٩٣.

يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ إِلَّا صَلَّى عَلَى الْعَبْدِ لِصَلَاةِ اللهِ عَلَيْهِ وَصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَرْغَبْ فِي هَذَا فَهُوَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ قَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْهُ وَرَسُولُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ»[1].

٤- وروى إبن قداح، عن أبي عبد الله عليه السلام عن الرسول ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ»[2].

٥- وعن الحسن ابن فضّال عن الإمام الرضا عليه السلام:

«مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يُكَفِّرُ بِهِ ذُنُوبَهُ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الصَّلَوَاتِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْماً»[3].

٦- ورُوي عن مرازم، قال: قال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي جَعَلْتُ ثُلُثَ صَلَوَاتِي لَكَ.

فَقَالَ لَهُ: خَيْراً.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي جَعَلْتُ نِصْفَ صَلَوَاتِي لَكَ.

فَقَالَ لَهُ: ذَاكَ أَفْضَلُ.

فَقَالَ: إِنِّي جَعَلْتُ كُلَّ صَلَوَاتِي لَكَ.

١- المصدر، ص٤٩٢.

٢- المصدر.

٣- بحار الأنوار، ج ٩١، ص٤٧.

فَقَالَ: إذاً يَكْفِيكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَهَمَّكَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَصْلَحَكَ اللهُ كَيْفَ يَجْعَلُ صَلاَتَهُ لَهُ؟

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لَا يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً إِلَّا بَدَأَ بِالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ»[1].

٧- وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ، فَإِنَّ الصَّلاَةَ عَلَيَّ نُورٌ فِي الْقَبرِ، ونُورٌ عَلَى الصِّرَاطِ، ونُورٌ فِي الْجَنَّةِ»[2].

٨- وفي رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ»[3].

وعلينا أن نحذر من أن نصلّي على رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة البتراء، فقد نهى صلى الله عليه وآله بشدّةٍ عن مثل هذه الصلاة، وهي أنْ نصلّي عليه ولا نصلّي على أهل بيته، كما وعلينا أنْ نعلم أنّ حبّنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هو أعظم زاد لنا في مواجهة مصاعب الحياة، وعقباتها.

١- الكافي، ج ٢، ص ٤٩٣.
٢- بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٧٠.
٣- بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٧١.

٧

لكي نقتدي برسول الله ﷺ

بعد أربعة عشر قرناً من بعثة النبي ﷺ لايزال هذا السؤال حائراً بيننا: لماذا لم ننتفع بشخصية الرسول ﷺ، هذه الرحمة الإلهية التي أسبغها الله تعالى على البشرية جمعاء، هذه المنّة التي تفضل الله بها على عباده؟

ترى لماذا لم نستفد من حياته الشريفة بالشكل بالمطلوب بالرغم من أن عواطفنا وأحاسيسنا مليئة بالحب تجاهه؟ وأين نحن من سيرته وهديه ومن خلقه العظيم وتوجيهاته والرسالة الإلهية التي أنزلت عليه؟

إنّ أمامنا طريقٌ واحدٌ يسلك بنا إلى الحق، وإلى رضوان الله في الآخرة، والخير والرفاه في الدنيا، هذا الطريق هو أن ننهج في حياتنا سيرة قائدنا وإمامنا رسول الله ﷺ.

حبلٌ بين السماء والأرض

والسؤال هو: كيف نعيش هذه الشخصية العظيمة في حياتنا؟

إنّ النّبي ﷺ الذي يُعتبر الحبل الممدود بين الأرض والسماء، إنّما نعيشه إذا اعتصمنا، ووحّدنا صفوفنا بالالتزام بنهجه، واتبعنا من يمثله عبر التاريخ. فهو ﷺ لم يرحل عن هذه الدنيا حتى استخلف فينا خلفاء إصطفاهم الله سبحانه وتعالى، ليكونوا قدوات نهتدي بهم، وأئمة نسير وراءَهم، وبذلك نكون قد شكرنا رسول الله ﷺعلى جهده وسعيه.

والخلفاء بدورهم أمرونا باتّباع قيادة الفقهاء الكرام. واتّباع هذه القيادة، والإعتصام بحبلها، والإلتفاف حولها هو في الحقيقة إحياءٌ لذكر رسول الله ﷺ، وإحياءٌ لنهجه، وإستمدادٌ من الرحمة الإلهية التي أنزلت معه.

هدف البعثة طاعة الرسول

وفي هذا المجال يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[١]، فطاعة الرسول ﷺ هي الهدف من بعثته، لا أن نكتفي بالإيمان القلبي به من دون طاعةٍ وعملٍ، فهل يمكن أن يكون هناك إيمانٌ مفرّغٌ من العمل؟

إنّ طاعة الله عزّ وجل في طاعة رسوله، وطاعة رسوله هي التي تُذهب عنّا الرجس، وتُطهّرنا من الذنوب كما يقول تعالى:

---

١ - سورة النساء، الآية ٦٤.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١].

إنّ الله تعالى إنّما يتوب علينا، وتعود الينا رحمته، وترجع إلينا وحدتنا في ظلّ «**لا إلهَ إلاّ الله**»، وعزتنا الإيمانية، وحضارتنا التي هي حضارة الخير والرفاه للبشرية، إنما تعود إلينا إذا استغفرنا الله عزّ وجلّ من خلال العودة إلى رسوله.

الغفران باستكمال التوبة

إنّ الله يغفر الذنوب، وهو توابٌ رحيمٌ، ولكن بشرط أن تستكمل التوبة شروطها، وشرط تحقيق إسم (التواب الرحيم) في واقع الإنسان هو أن يكون طريقنا الى الله - جلت قدرته - سليماً، وأن نسلك صراطاً مستقيماً، وهذا الصراط يتمثل في رسول الله ﷺ الذي ما يزال موجوداً فينا عبر مَنْ أمر بطاعته. أولم يقل النّبي ﷺ في حديثه المشهور المتفق عليه بين جميع المذاهب الإسلامية: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي» ثَلاَثاً. قيل: يا رسول الله ومَنْ خلفاؤك؟ قال: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ حَدِيثِي وَسُنَّتِي ثُمَّ يُعَلِّمُونَهَا أُمَّتِي»**[٢].

١- سورة النساء، الآية ٦٤.

٢- بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٤٤.

أفليس العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، المتّصفون بصفة الربانية، أوليس هؤلاء بين ظهرانينا؟ أولا نستطيع أن نجعلهم شفعاءنا عند الله جلّ وعلا من خلال اتّباعهم؟

إنّ استغفار الرسول ﷺ للأمة هو شرط لعودة الرحمة الإلهية إليها، والرسول ﷺ لا يستغفر للأمة إلا عندما تعود إلى سيرته.

الرسول الحاكم

ثم يؤكد تعالى على فكرةٍ مهمةٍ من خلال قوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[1]، أي حتى يجعلوك حاكماً وقاضياً بينهم في أشدّ القضايا وأكثرها تعقيداً؛ ألا وهي قضايا الخلاف التي يشير إليها تعالى بـ (الشجار)؛ أي فيما يبرز بينهم من خلافات.

فإن كنّا نؤمن جميعاً بالله والرسول فلماذا الإختلاف، ولماذا التفرقة، ولماذا التنابز بالألقاب، والعنصرية، والطائفية، والحدود، والمسافات الفاصلة؟ ولماذا لا نوحّد صفوفنا؟

إنّ قولنا: إنّ رسول الله ﷺ هو قائدنا لا يكفي، فالقائد يوحّد جماعته، فلماذا - إذن - لا نَتَّحِد تحت رايته؟

---

١ - سورة النساء، الآية ٦٥.

فبعد اتباع القيادة لا بد من الإهتمام بالوحدة على أساس هذه القيادة، وتأكيداً على هذه الفكرة يقول تعالى بعد تلك الفقرة من الآية:

﴿...ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[١].

وهكذا فإن الرسول ﷺ يوحِّد صفوف المسلمين، وهو القاضي بينهم، والحاكم عليهم دون أن يكون لهم الحق في الإعتراض على حكمه حتى بهواجس قلوبهم. فالحاكم لا يحكم دائماً في مصلحتك، فقد تكون مخطئاً فَيَحكم عليك، وإذا حكم عليك فإنّ هوى نفسك سيدفعك إلى معارضته علناً، أو على الأقل فإنك ستضمر المعارضة له في قلبك، في حين أنّ الله عزّ وجل يشير بصريح العبارة إلى أنّ مجرد إضمارك لهذه المعارضة، ووجدانك الحرج في نفسك مما قضى به رسول الله ﷺ سوف يكونان سبباً لاختلال إيمانك وضعفه:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[٢].

والحرج هو الضيق والمخالفة النفسية، والتسليم يعني الإذعان الكامل لما يأمر به.

وكل ذلك لا يمكن أن يحدث إلّا من خلال الإستغفار، ومن ثم الخضوع للقيادة، وتوحيد الكلمة، وبذلك تعود إلينا عزّتنا وحضارتنا.

١- سورة النساء، الآية ٦٥.

٢- سورة النساء، الآية ٦٥.

الفصل الثاني

نِعَمٌ سابغات

١ـ مولد النّور

٢ـ مبعث النور

٣ـ إنطلاقة العقل والإرادة

٤ـ مبدِّد الظلمات ومحطِّم الحواجز

٥ـ منطلق الوحدة

٦ـ النعمة الكبرى والمنَّة السابغة

٧ـ مدرسة العزّة الإيمانيّة

١

مولد النّور

كان الظلام سائداً على العالم، وكانت الأصنام تُعبد جهراً بفعل الإنحرافات الجاهلية، وكانت البشرية غارقةً في الضلالة، وقوى الإستكبار هي سيدة الموقف في كافة أنحاء الأرض، والمستضعَفون يرزحون تحت نير السلطات الطاغية هنا وهناك، والأقوياء والأغنياء يفرضون منطق القوة وشريعة الغاب في كلّ مكانٍ.

الإمبراطورية الرومانية كانت تعتنق المسيحية ظاهراً، والطبقية كانت قد بلغت أوجها.

أما الإمبراطورية الفارسية فقد كانت تعج هي الأخرى بالعنصرية والطبقية، وجماهير الفلاحين والمهنيين ترزح تحت نير الضرائب المتصاعدة.

وفي الجزيرة العربية كان شعار الناس الخوف، ودثارهم السيف، وحياتهم مليئة بالتعاسة والمآسي.

بداية عصرٍ جديدٍ

إزاء هذه الأوضاع أبت رحمة الله عز وجل إلّا أن تبعث للبشرية منقذاً، وهادياً، وبشيراً، وسراجاً منيراً، فَوُلِدَ الرسول محمد بن عبد الله ﷺ بعد خمسة وخمسين يوماً من واقعة الفيل الشهيرة، حيث كانت هذه الواقعة إرهاصاً وإيذاناً بانتهاء عصر، وبداية عصرٍ جديدٍ، فقد بعث الله سبحانه طيراً أبابيل على جيش أبرهة، فقتلهم ودمَّرهم وأهلكهم عن بكرة أبيهم بعد أن تجبروا، وحاولوا الإعتداء على بيت الله الحرام. فها هو الغيب يدخل طرفاً رئيسياً في معركة الخير والشر، والحق والباطل، ويساند الخير والحق بقوته. وها هو الإرهاص بطلوع فجرٍ جديدٍ، لأنَّ الله عزّ وجل خلق النّاس ليرحمهم لا ليعذّبهم، وقد أبى أن يستمر المستضعَفون والفقراء والبؤساء في وضعٍ كهذا الوضع، فبعث رسوله خيراً عميماً ورحمةً للعالمين.

وعند ولادة سيد الخلق كانت هناك إرهاصاتٌ عديدةٌ أخرى في الأرض؛ فقد غاضت بحيرة ساوة، وفاضت بحيرة السماوة، وزلزل أيوان كسرى وسقطت منه أربعة عشر شرفةٍ، وخمدت نيران المجوس التي لم تخمد قبل ذلك الف سنةٍ.

وشهد العالم حوادث أخرى غريبة لم يكن يعهدها من قبل إيذاناً بأن الله عز وجل شاء أن ينقذ البشرية، فوضعت آمنة ذلك الوليد الذي عمّت بركته البشرية على امتداد التاريخ.

دروس الميلاد

وهنا يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: إننا اليوم نعيش في ظروفٍ شبيهة في أبعادٍ مختلفةٍ للجاهلية التي كانت سائدةً قبل الإسلام، فنحن نشهد الآن الجاهلية المادية الطاغية وهي تسعى اليوم لتعم بضلالتها وظلامها الأرض، فكيف ننتفع ونستلهم العبر والدروس من ذكرى مولد الرسول الأعظم ﷺ؟

إنَّ البعض يعتقد – للأسف الشديد – أننا لا نستطيع أن ننتفع بشخصية النّبي ﷺ مادام غائباً عنا، وهذا التصور خطأ فظيع، فإنْ يكن الرسول غائباً عنا فإنّ الكتاب الذي أوحي إليه مايزال باقياً، كما أن سيرته الوضاءة ما تزال بين أيدينا، وسنحاول فيما يلي الإجابة على السؤال السابق عبر طرح النقاط والملاحظات التالية:

استفادةٌ ممكنةٌ

١- إنَّ الإستفادة من شخصية الرسول ﷺ ممكنةٌ من خلال دراسة سيرته، فمن المعلوم أن رسالته ﷺ كانت أول رسالة كُتِبَت، لأنَّ الكتابة في عهده كانت منتشرة، وكان ﷺ بدوره يؤكد عليها، وهكذا بقيت سيرته العطرة ذخراً لنا، فالرسالات السماوية السابقة لم تُكتب بتفاصيلها كما كُتِبت رسالة نبيّنا الأعظم ﷺ، وعلى سبيل المثال فقد روى لنا التاريخ

تفاصيل وجزئيات كاملة عن حياة النّبي ﷺ؛ كيف كان ينام، وكيف كان ينهض، وكيف كان يأكل ويشرب ويمشي، وأسلوب تعامله مع أهله، وأصحابه. كل هذه التفاصيل وغيرها مثبتة في كتب السيرة بوضوحٍ، إلى درجة أنّ هذه الكتب ذكرت حتى آداب شرب النّبي ﷺ للماء وأكله الطعام.

ومن جهةٍ أخرى فان القرآن الكريم يقول في هذا المجال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، والأسوة تعني أن نستلهم الدروس والعبر من سيرته وكأنه ﷺ يقودنا بالفعل ويعيش بين ظهرانينا، فعلينا أنْ نجسّده في أذهاننا، ولو أننا استلهمنا من سيرته العطرة كل التفاصيل وربطناها ببعضها لجَسَّدنا سيرته، وحينئذٍ نستطيع أن نتساءل عندما نواجه أي سؤالٍ محيّرٍ أو موقف صعبٍ: كيف كان يتصرف الرسول ﷺ في مثل هذه المواقف؟ كيف كان - مثلاً - يقود الحرب؟ وكيف كان ﷺ يقود الأمة في حياته، وبأي خلقٍ كان يتفاعل مع المجتمع، وكيف أدار ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الغفلة، والعداوات، والصراع؟

إنّ على كلّ فردٍ منّا، وعلى المجتمع كلّه، دراسة سيرة النّبي ﷺ بشكلٍ مُعمقٍ، وحفظ هذه السيرة، ومحاولة اتّباعه فيها، وحينئذٍ ستكون سيرته هذه رحمةً لنا كما كان وجوده رحمةً لمن كان حوله.

١- سورة الأحزاب، الآية ٢١.

رمز وحدة الأمة

٢- إنَّ الرسول ﷺ يمثل رايةً رسالية توحد الأمة، فجميع الخطوط تنتهي إلى شخصيته ﷺ، ونحن لو اتخذنا منه منطلقاً للوحدة والتوحيد وتركيز الجهود، ولو اتخذنا منه حبلاً نعتصم به، لأصبحنا أمةً قويةً مقتدرةً لا يمكن أن تنال منها مؤامرات الأعداء.

وعندما يقول الله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١]، فإنه يشير في آيةٍ سابقةٍ على أنّ حبل الله يتمثل في اثنين: الرسول ﷺ، والرسالة أي القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] فالإعتصام بحبل الله عزّ وجل يعني توحيد الصفوف تحت راية النّبي ﷺ، ونهج القرآن، وهذا مطلب يمكن تحقيقه، لأنَّ الرسول ﷺ حاكم فيما بيننا، والإحتكام إلى منهجه وتعاليمه يُعدّ من الفرائض التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٣].

١- سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢- سورة آل عمران، الآية ١٠١.

٣- سورة النساء، الآية ٦٥.

فالتسليم لرسالة النبي ﷺ من شأنه أن يوحّدنا، أمّا أن يعتقد كلّ فريقٍ بأنّ رسول الله ﷺ ملكه، وينفي إنتماء الآخرين إليه، فهذا ما يؤدي الى الشقاق والخلاف الذي جعل المسلمين اليوم معرضين للغزو العسكري، والإقتصادي، والسياسي، والثقافي بسبب ما يعانون من التمزّق والتشتت.

القرآن الناطق

٣- لاشك إنّ سيرة رسول الله ﷺ جسّدت كل ما في القرآن الكريم، فقد كان ﷺ خُلقه القرآن.

وإنّ كتاب الله موجودٌ بين أيدينا، وعلينا الإلتصاق أكثر فأكثر بهذا الكتاب العظيم، والإستلهام من آياته الكريمة، والعمل بتعاليمه المقدسة، إحياءً لسيرة رسول الله ﷺ، واستنزالاً لرحمته التي شملت العالمين بأجمعهم، فقد جاء إليهم بكتابٍ هو نورٌ وهدىً، وفيه بصائر وذِكْر، وفيه تفصيل كلِّ شيءٍ.

وهنا نؤكد أن الرسول ﷺ لم يكن رحمةً للمسلمين فقط، بل كان رحمةً للعالمين. فعلينا - إذن - أن نسعى من أجل هداية البشرية كلّها بسيرة الرسول ﷺ الوضاءة. فأين دعوتنا هذه للعالَم؟ ولماذا لانحمل هذا السراج المنير إلى جميع أرجاء العالم، خصوصاً تلك المناطق التي تبحث عن النور، والتي عانت ما عانت من الويلات والمآسي بسبب ضلالها وابتعادها عن

الصراط المستقيم الذي رسمه لها الخالق عزّ وجل؟

إنّ الدعوة الآن إلى الرسالة التي سبق وأنْ حملها نبيّنا الأعظم محمد ﷺ، والعمل المنظم والدؤوب من أجل نشرها، يمثلان واجباً أساسياً علينا تجاه الرسول الحبيب إلى قلوبنا. فالبشرية اليوم هي أحوج ما تكون إلى من يصحح مسيرتها، ويهديها إلى سواء السبيل، وينقذها من أسر المذاهب الوضعية التي لم تجرَّ عليها سوى المزيد من الأزمات والمشاكل على مختلف الأصعدة.

٢

مبعث النور

هناك أيام تبقى تتألق في أحشاء التاريخ المظلمة فيما تتلاشى سائر الأيام، فما هو سر تألق تلك الأيام التي هي من أيام الله التي لا ينطفئ توهُّجها؟

فلقد مضت عشرات القرون وذكرى البعثة النّبوية الشريفة لنبي الرحمة، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ماتزال جديدة طرية تستقطب إهتمام كلّ مؤمنٍ في كلّ مكانٍ، فيما تشهد المعمورة وقوع حوادث شتى سرعان ما تضمحل وتتلاشى من ذاكرة التاريخ، فما سر بقاء هذه الذكرى وغيرها من الذكريات الإلهية؟

سر تجدّد الذكرى

إنّ السّرَّ في تجدّدها وخلودها، وخصوصاً ذكرى البعثة النبوية الشريفة، هو ما لهذه الذكريات من علاقةٍ وثيقةٍ، واتصال متين بالسنن الإلهية

الثابتة، ولكون البشرية بحاجةٍ ماسةٍ إلى تجديدها لما لها من دور في تحقيق الأهداف السامية التي يأملها الإنسان المؤمن في حياته.

حاجة متجدِّدة

فالبعثة النّبوية لم تكن واقعةً تأريخيةً عابرة حدثت لفترة وانتهت، ولم تكن حاجة البشرية إلى انطلاق الرسالة الإلهية حاجةً وقتيةً إنتهت واستغني عنها، بل هي حاجةٌ متجددةٌ، وحقيقةٌ مستمرةٌ، ولقد أبدت البشرية تجاوبها مع نداءات الوحي التي إنطلق صداها إلى الدنيا من غار حراء أن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]، وظل هذا الدوي يمخر عباب التاريخ الطويل، حتى انتشر في أرجاء الدنيا رغم كلّ العقبات، والعوائق، والمحاولات القاسية التي أرادت أنْ تحول دون وصوله إلينا.

ومنذ ذلك اليوم المجيد وحاجة الناس إلى الرسالة النبوية ماتزال مستمرة، ونحن بالطبع من هؤلاء الناس، فنحن مازلنا بأمس الحاجة إلى هذا الإنبعاث الإلهي الذي من شأنه أن يوقظ البشرية السادرة في غفلتها، والمنطوية على ذاتها، وفي حدودها الضيقة، فنحن نلمس اليوم مدى الحرمان المعنوي والبؤس الروحي الذي يعم أرجاءها، فلا بد لها في كلّ آنٍ من بعثة وانبعاث.

١- سورة العلق، الآية ١.

رسالةٌ عالميةٌ

إنّ مهمّة النّبي ﷺ لم تقتصر على أهل مكة والمدينة وحدهما، وهو ﷺ لم يكن رسولا لأهل الجزيرة العربية فحسب، ولا للأمم التي عاصرته وعايشته فقط، بل كان رسولاً لكلِّ الأجيال والأمم على مدى التاريخ منذ لحظة انبعاثه ﷺ رسولاً ورحمةً للعالمين، والى اليوم، والى يوم القيامة. والبشرية كلّما احتاجت إلى انبعاثٍ روحيٍ فليس أمامها إلا العودة إلى هدي النّبي الأعظم ﷺ.

إنَّ وجه الدنيا قد تبدل عما كان عليه في الأمس إبّان العصر الأول للرسالة؛ حيث تغيرت ظواهر وحقائق كثيرة، وحدث إنقلابٌ عظيمٌ في مظاهر الحياة المادية، فأين ركوب الدواب من التحليق بالطائرات؟ وأين الإستنارة بمصابيح الزيت من المصابيح الكهربائية؟ وهكذا الحال بالنسبة إلى كافة مظاهر الحياة التي تبدلت وتغيرت شيئاً فشيئاً حتى غدا هذا العصر عصر العقول الإلكترونية.

الطبيعة البشرية باقيةٌ

ولكن الشيء الوحيد الذي لم يطرأ عليه التغيير هو الطبيعة البشرية، حيث مازالت البشرية تريد إشباع حاجتها الروحية، وظلت بحاجةٍ إلى رحمةٍ الهيةٍ مهداة كما قال النّبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاة**»[١]، وقد أكد

١- بحار الأنوار، ج ١٦، ص١١٥.

القرآن الكريم على هذه الحقيقة قائلاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

وعندما يتحول التفكير البشري إلى تفكيرٍ مادي، يغوص أبناء البشر في شهواتهم وملذاتهم، ويجرون وراءها، فتنشب النزاعات والفتن، وتسيل الدماء، وتزهق الأرواح، فحينئذ لا بد لها من بلسمٍ ينقذها من الهلاك، والدمار، ويداوي جراحها.

رسالة السماء بَلسم البشرية

وهذا البلسم ليس إلا رسالة السماء، وبالتأكيد فإنّ البلسم الشامل والكامل هو ما تجسّد في بعثة نبي الرحمة، وخاتم رسالات السماء محمد صلى الله عليه وآله. علماً أنّ حال البشرية اليوم ليس بأفضل من حالهم بالأمس وفي عصر ما قبل الرسالة، فقد كان حالهم كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، واعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، والدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، واغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وشِعَارُهَا الْخَوْفُ، ودِثَارُهَا السَّيْفُ»[٢].

١- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

٢- نهج البلاغة، ص١٢١، خطبة٨٩.

وهو أفضل وصفٍ لحالة الجاهلية المتزعزعة المتردية حيث لا أمن إلّا بالسيف والقوة.

لقد كان الإقتتال بين القبائل العربية يقع لأتفه الأسباب، وعلى سبيل المثال فان الأَوْس والخزرج إقتتلا لأكثر من ثلاثمائة سنةٍ من أجل سببٍ بسيطٍ وتافهٍ، أَلَا وهو قتل بهيمة. وقد كانت القبائل العربية تنقض في بعض الأحيان – عندما يداهمها الجوع – على آلهتها المصنوعة من التمر لتأكلها! وأما السبل فقد كانت غير آمنة من قطاعها الذين كانوا يسلبون وينهبون ما طاب لهم من أموال القوافل المارة بهم، وعلى هذه الصور وغيرها كان حال الجاهلية الأولى.

قبائلُ العصر الحديث

وإذا ما تأملنا حال العالم اليوم إكتشفنا أنه ليس بأفضل مما كان عليه في الأمس، وإن اختلفت الوسائل والمظاهر، فزُعَماءُ البشرية اليوم يصنعون وسائل فنائها وانقراضها بأيديهم حيث الصواريخ المدمِّرة، والقنابل النووية، والأسلحة الكيمياوية، والغواصات المزوَّدة بالرؤوس النوويّة التي تجوب أعماق المحيطات طولاً وعرضاً.

كما وأن البشرية غدت اليوم مهدَّدة بشتى أنواع المخاطر الداهمة، مثل: الجوع والمرض والحرمان والجفاف والقحط المنتشر في أرجاء كثيرة من

الأرض.

ومع وجود هذه الاوضاع المأساوية، ترى هل غدت البشرية المعذَّبة غنية عن الرسالة وانبعاثها الجديد، كما يزعم البعض من المنبهرين بوسائل الحضارة المتطورة؟ كلا وألف كلا؛ بل ربما ازدادت الحاجة لهذا الإنبعاث أضعافاً واضعافاً عما كانت عليه بالأمس.

فإن كان الإقتتال بالأمس يعتمد على قوة الفرد وقدرته على حمل السيف، ومنازلة الخصم به، فإنّه يختلف اليوم بنسبة واحد إلى مليون؛ فبمستطاع شخصٍ أو شخصين يجلسان وراء الأزرار، وبمجرد ضغطات بسيطة عليها أن يطلقا الصواريخ العابرة للقارات، فينعدم بذلك وجود الملايين من البشر، وتُلغى صلاحية الأرض للحياة؛ أي إنّ بإمكان هذين الشخصين أن يحدِّدا ويقرِّرا مصير هذا العالم من موقعهما، في حين أنّ جيوش الأمس كان عليها أن تسير أياماً وليالي، وتقطع الصحاري والقفار والوديان والسهول لكي تبلغ مواقع المواجهة بينها، فأين حروب الأمس من حروب اليوم؟!

إنبعاثٌ رحمانيّ

وبناءً على ذلك فنحن بحاجة اليوم إلى الإنبعاث الرحماني، وإنّ كانت البعثة النبوية في الأمس سبباً في إصلاح قبائل متناحرة لا يتجاوز عدد

أفرادها بضعة آلافٍ من الناس، فإنها اليوم ضرورية لإصلاح أمر الملايين من البشرية المعذَّبة والمضطَهَدة التي تحتاج إلى من يعمل على إنقاذها وتحريرها مما تعاني منه من الويلات، والفتن، والآثار السلبية للحرمان.

وهنا يتبادر إلى الأذهان السؤال المهم التالي: هل المهم في الرسول ﷺ شخصه أم نهجه ونبراسه الرسالي اللذان ما يزالان قائمين وسيظلان كذلك حتى قيام الساعة؟ من المعلوم أنّ غياب شخصه ﷺ ليس مهماً كأهمية ما جاء به في رسالته الإلهية من تعاليمٍ ساميةٍ بدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا۝وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[١].

فالرسول ﷺ سراجٌ لاينطفئ وإن غاب شخصه عنا، وحاشا لنور الرسالة الوهاج أنْ تحجبه الغيوم الداكنة، فلا يد للزمان تتطاول فتنال من شعاع الرسول ﷺ الساطع الخالد، فهذا النور موجود مادامت كلمة «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**» تطل على الخافقين، ولذلك فان أهم ما في ذكرى البعثة النّبوية الشّريفة أنْ نجدد هذه الذكرى مع الزمان مادامت الحاجة إلى الرسالة مطلوبة ومتجددة.

وربّما يغيب عن البعض، بسبب ما يترك الإنبهار بحضارة الغرب من أثر على النفوس، أنَّ العالم الغربي صار مثله مثل تلك العجوز الشمطاء

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٥-٤٦.

التي أكل الدهر عليها وشرب فلجأت إلى عطار بالقرب من بيتها علّها تنجح في إصلاح نفسها! فالغربيون باتوا اليوم يحاولون تلميع وجوههم، وإصلاح ظاهرهم الذي غدا سخيفاً باهتاً، ويكفي في هذا المجال أن تشهد تقارير مرض الإيدز بمدى التفسخ الخلقي الذي يعيشونه، هذا المرض الذي لم ينجحوا لحد الآن في القضاء عليه او حتى في الحد من انتشاره.

ومن حقّنا أن نتساءل هنا: مَن المسؤول عن هذه الويلات والمآسي التي تمر بها البشرية؟ أليس هو الفكر الجاهلي المادي المتمثّل في الحضارة الغربية؟ وعندما يكون هذا الفكر هو السبب، أليست البشرية بحاجة الى رحمةٍ إلهيةٍ تقف في وجه هذا الإتجاه الجاهلي المعاصر وتقضي عليه؟

الرحمة عند الرسول ﷺ

ترى أين نجد هذه الرحمة، وماهو مكمنها؟ إنَّها عند رسول الله ﷺ متمثلةً في ما جاء به من الرسالة، ونهجها الخالد العظيم، وأهدافها السامية النبيلة، فالعمل الجبار والمذهل الذي أنجزه النّبي ﷺ ومايزال ينجزه عبر رسالته ونهجه الخالدَيْن، يتمثّل في أنه صنع من هذا الإنسان الذي كان يتحرك من أجل دنياه، ومن منطلق شهواته ودوافعه الأنانية، صنع منه إنساناً يكاد يكون أنموذجاً في الأخلاق السامية، فإذا به عطوفٌ رحيمٌ

كريمٌ، يحب الآخرين، ويضحي من أجلهم، ويحب أمته، ويقدس عقيدته ومبادءَه، ويحمل رسالة في الحياة.

أمةٌ مُتآخيةٌ وموحّدةٌ

وهكذا فقد صنع الرسول ﷺ من تلك الأمة الممزَّقة المشتتة، أمة واحدة متآخية، تسودها المودة والتضحية والإيثار، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجاهد في سبيل الله حق جهاده، فلقد تحرروا من أطر أنفسهم الضيقة التي كانوا يعيشونها في الجاهلية، وأصبح الواحد منهم يهبُّ مسرعاً للجهاد بمجرد أن يطرق سَمعَهُ نداء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[١].

وهكذا تغيرت كلّ القيم الجاهلية، بل ونُسِفت من أساسها بفضل ذلك المنهج الرسالي، وصار الجميع جنوداً للإصلاح والتغيير، وتحولت تلك الكتل المتنازعة المتناحرة إلى كتلةٍ واحدةٍ متراصةٍ تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتخوض غمار الجهاد، وتدعو لله تعالى، وقد انتشر نور الإسلام بفضل جهاد أبنائه الذين حملوا راية الجهاد والدعوة الإلهية منطلقين من الجزيرة العربية إلى بقاع العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وهذه هي أمة الرسالة وأمة القرآن التي صنعها النبي ﷺ.

١- سورة النساء، الآية ٧٥.

مسافات شاسعة

أما نحن فمازالت المسافة شاسعة بيننا وبين ما يدعو إليه القرآن، فأين نحن من تلك النداءات والوصايا والأوامر القرآنية؟ أولسنا نحن الذين ينبغي أن نتأسى بالرسول وأخلاقه وسيرته في حياتنا؟

إننا اليوم بأمس الحاجة إلى أمةٍ منّا تقوم بأعباء مسوؤليتها التاريخية، وتحمل راية النّبي ﷺ من جديد، وتعمل على إيقاظ القيم الإيمانية في النفوس، هذه القيم التي تدعو إلى القسط، وحب الآخرين، والإيثار، والتضحية، بل إلى حب الله عزّ وجل، وتغيير ما في النفوس من عوامل التردي والتخلف، وإصلاحها، وبالتالي إصلاح المجتمع الفاسد.

إنَّ من أعظم الإنتماء هو أن ننتمي إلى تلك القيم التي تنادي وتدعو لها الرسالة المحمدية، ولنحذر كلّ الحذر من أن تكون أهداف الحركات الرسالية ملوَّثة بالروح الأنانية النفعية؛ أي يجب أن لا تكون الأهداف شخصية بل لتكن أهدافاً من أجل الله تعالى وفي سبيله، ومن أجل أبناء هذه الأمة المعذَّبة المضطَهَدة في كلّ مكانٍ من بقاع عالمنا الإسلامي.

لا نجاح للمجتمع الأناني

ولنعلم أنه لن تزهر وتورق شجرة المجتمع الأناني، بل تزهر وتورق وتثمر شجرة ذلك المجتمع الذي تشيع فيه روح الإيثار والبذل والتضحية

من أجل الآخرين، ويسوده التعاون والتكاتف والمسارعة إلى الخيرات، وهذا هو المجتمع الناجح الذي ينشد التقدم والإزدهار والذي يمثل أساس الحضارة الإنسانية الحرةِ الكريمةِ.

وهذا المجتمع هو الذي يتحرك نحو الكمال والأهداف النبيلة السامية، لأنَّ اليد الإلهية ستكون في عونه، وتسدد أفراده، وقد ضمن الله سبحانه لعباده النصر والتأييد فيما لو نصر أبناء هذا المجتمع ربّهم بتلك الروح الإيجابية الخلاقة المتمثلة في تحمل المسؤولية، والتوكل عليه تعالى، وقد أشار القرآن الكريم بصراحةٍ إلى هذه الحقيقة في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

ونصرة الله جلّ وعلا تعني في جانبٍ منها نصرة أوليائه، وكتابه العزيز من خلال العمل بمناهجه وقيمه وأوامره ونواهيه وكلِّ شرائعه المقدسة، فلا بد من أن نتآخى بيننا كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[2].

ولا بد من التعاضد والتعاون كما أكد على ذلك عزّ وجل قائلا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[3].

كتابٌ كلهُ هدىً

ولا مناص لنا أيضا من الإلتفاف حول كتاب الله، والأخذ بسيرة

١- سورة محمد، الآية ٧.
٢- سورة الحجرات، الآية ١٠.
٣- سورة المائدة، الآية ٢.

رسوله وأوليائه حيث يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١].

وكتاب الله العزيز كلُّه هدىً، وهو السراج الذي ينير لنا طريق الحياة الحرة الكريمة، وهو الذي يأمرنا بالتلاحم، والتعاون فيما بيننا.

ولا بد أن نجسّد إسلامنا من خلال تلك المعاني والقيم؛ قيم المسؤولية، والإهتمام بمصير الآخرين عبر مساعدتهم، وإنقاذهم من المصائب والويلات والكوارث التي تحل بهم، إنطلاقاً من الحديث الشريف: «**مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِم**»[٢].

أما آن الأوان لأن نتحمل مسؤولياتنا التاريخية تجاه إخواننا المضطهدين المقهورين في بلدان عالمنا الإسلامي الشاسع؟

وللأسف فعندما يكون الحديث حديث المسؤولية والحثّ عليها، تتدفق سلسلة التبريرات الواهية التي يدحضها القرآن جملةً وتفصيلاً في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[٣].

فلنكن في عون إخواننا أينما كانوا، ولنبحث عن ذوي الحاجة والعوز الذين قد لا تبدو حاجتهم على سيماهم لتعففهم، فعلينا أن لا ننتظر لكي

١- سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢- الكافي، ج ٢، ص ١٦٣.

٣- سورة القيامة، الآية ١٤- ١٥.

يبادرونا بالسؤال لأن في السؤال ذلةٌ، والمؤمن ينبغي أن يبقى عزيزاً صائناً لكرامته. ولنقرأ تأريخ الأئمة عليهم السلام وكيف كانوا يوصلون الحاجة إلى أصحابها بأساليب تحفظ كرامة الإنسان المحتاج، فقد كانوا عليهم السلام يمرّون متنكرين على بيوت الفقراء والمساكين الذين لايسألون الناس الحافاً، ويساعدونم بقدر المستطاع.

وإذا كان البعض لا يعاني من الحاجة المادية فإنّ حاجته قد تكون معنويةً؛ أي قد يكون محتاجاً إلى الهداية والرشاد، ومثل هؤلاء ينبغي البحث عنهم وإنقاذهم مما هم فيه من جهلٍ وضلالٍ وبُعدٍ عن الحقائق، ولنعلم أنّ الله سبحانه ينزل فيض رحمته على عباده إن هم تراحموا بينهم، ونبيّنا ﷺ هو نبي الرحمة، وتتجلى هذه الرحمة في تعاليمه وسيرته وقيمه، وكذلك في كتابه، وما علينا إلّا أن نلتف حول الرسول ﷺ ورسالته، ونحمل رايته لكي نقترب من هديه، ونبلِّغ هذا الهدى للعالَمين.

٣

إنطلاقة العقل والإرادة

في عصر ما قبل البعثة النّبويّة الشّريفة كانت البشرية غائصة في مستنقع الجهل والضلال، حيث لُفَّ العقل البشري - هذه النعمة الإلهية الكبرى- بركامٍ من الخرافات والأساطير، وحُجُب الغفلة والشهوات، وكذلك الإرادة - هذه القوة الإلهية التي تميز بها الإنسان - كانت قد غُلَّت بالإصر والأغلال، بالإضافة إلى القلب الذي هو ينبوع العواطف الخَيِّرة فهو الآخر كان قد دُسَّ في ركامٍ من الأخلاق الرذيلة التي حجبته عن تلك العواطف.

ومن أجل إنقاذ هذا الإنسان تدخلت إرادة السماء فَوُلِدَ النور، وانبعث الخير على أعتاب مولد النبي محمد ﷺ، وإثر ذلك شهد العالم حوادث غريبة وذات مغزى كبير، فإذا بشرفات قصر كسرى بالمدائن تتهاوى، ونيران المجوس في فارس تخمد، وتجف بحيرة ساوة، وغيرها من

التحولات العظيمة التي جذبت إنبتاه العالم اليها.

إرادة السماء تتدخل

لقد كانت هذه التحولات الكبيرة إشارةً واضحةً إلى تدخل إرادة السماء في ساحة الصراع بين الخير والشر، والنور والظلام، والحب والبغضاء، بعد أن لفّ ظلام الجهل نور الحقيقة، وسيطر الطغاة على مقاليد الأرض، حتى لم يعد الدعاة إلى الله تعالى قادرين على الصمود أمام هجمات الجاهليين، وحينئذ قررت الإرادة الإلهية، والمشيئة العليا أن ينتصر النور على الظلام، والعقل على الجهل، بولادة سيد البشر محمد ﷺ.

وهذه الولادة المباركة كانت بمثابة إنطلاقة حضارة السماء التي ستعم الأرض، وهي آخذةٌ بالتقدم والتكامل حتى يظهر ولي الله الأعظم فَيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئَتْ ظلماً وجوراً.

ونحن إذا قرأنا التاريخ، ودرسنا فصول الحضارات على وجه الخصوص لرأينا أنّ الخط البياني لتقدم البشرية قد بدأ لحظة ميلاد الرسول الأعظم ﷺ ثم بعثته بالرسالة.

صحيح أن كلّ رسالات السماء كانت تحمل معها وقود الحضارة لتدفع بالبشرية إلى الأمام، إلّا أن رسالة النّبي الأعظم محمد ﷺ كانت تمثل الدرجة الأخيرة في التحول الكيفي في مسيرة الحضارة البشرية.

بين المنهج الإسلامي والمنهج الجاهلي

وهنا بالضبط كانت الإنعطافة الكبرى، فبلغت المسيرة رشدها، وبدأت الحضارة حركتها الحقيقية، وعاد الإنسان يعيش إنسانيته مقراً أنّ الناس سواسيةٌ كأسنان المشط، على عكس ما كان يعتقد به الفلاسفة القدامى كأرسطو الذي كان يصرح أن الناس لا يمكن أن يكونوا سواسية، فَهُم على أقسامٍ؛ فمنهم من ليس ببشر وإنما خلقهم الله بالصورة الآدمية لكي يخدموا الآخرين من الطبقات العليا.

وإلى اليوم نلاحظ أن هذا التقسيم غير الطبيعي ما يزال سائدًا في بعض البلدان؛ ففي الهند - مثلاً - نجد شريحةً كبيرةً من الناس يطلق عليها إسم (المنبوذون) تعيش في حالة يُرثى لها من الجهل، والتخلف، والفقر، والحرمان، والأسوأ من ذلك أنّ أحداً منهم لا يجرؤ على إنقاذ نفسه من هذا الواقع المزري لاعتقاده بأنه منبوذ حقاً!

وراح البعض يميز بين جنس الرجل، وجنس المرأة؛ اذ كان أغلب الفلاسفة يعتقدون أنّ المرأة ليست من جنس الرجل، وأنها من جنسٍ أدنى منه، وأنَّ الله تعالى قد خلقها لتخدمه، وهذه المعتقدات وما شاكلها تسربت إلى بعض الديانات مما سبب إنحرافها - كالديانة اليهودية مثلاً - حتى صار أصحابها يعتنقون فكرة العنصرية ليجعلوها شعاراً لمحاربة الشعوب.

خلفيةٌ جاهلية

وحتى أولئك الذين يدَّعون التقدم والحضارة في عالمنا المعاصر لا يعترفون هم أيضاً بالآخرين، لأنّ خلفيتهم الفكرية خلفيةٌ جاهليةٌ، ولأنّهم لم يتبعوا القيم الإلهية، ومن هنا ندرك حقيقة أن الحضارة الحقيقية لا يمكن أن تكتمل إلّا في ظل رسالات السماء التي تؤدي الدور الفاعل في إثارة دفائن العقول، واستخراج خزائنها، وإذا بهذه العقول المدسوسة في تراب الخرافات والأساطير تنشط وتأخذ بالإشعاع في الآفاق الواسعة.

وكلّما تحرر العقل شُحِذت العزيمة، وتوفرت النية الخالصة حتى يصبح الإنسان قادراً على إتخاذ قراره بنفسه، ذلك أنَّ قيمة الإنسان بقراره، فالإنسان الذي يخضع لكلّ من هبّ ودبّ سرعان ما ينهار أمام أي تحدٍّ قد يواجهه في حياته.

إنّ الإنسان الحر يمكنه أن يتحدى كلّ الحتميات الإجتماعية، والحتميات التاريخية، وغيرها. صحيح أن هناك عوامل تاريخية قد يكون بعضها ثابتاً، إلّا أن الإنسان مع ذلك يكون فوق التاريخ بإرادته، فبإمكانه أنْ يوقفه ليصنعه من جديد، وهذه هي الفكرة الثورية التي تستطيع أن تجعل الإنسان يقفز قفزات واسعة لتحقيق تطلعاته الكبيرة.

ومن خلال تحقيق هذه الفكرة تمكَّن الإسلام من مد نفوذه على أكبر مساحة من الأرض، وفي أسرع وقت، ونحن نلمس ذلك في شخصية

رسول الله ﷺ الذي تحدى كلّ الحتميات الجاهلية التي كانت سائدةً آنذاك، فأثار العقول بعد أن كانت خامدةً، وأعاد للنفوس حيويتها بعد أن كانت ميتة، وألغى العصبيات، والإعتداءات، والأحقاد، والبغضاء بعد أن كانت متأججة، وأرسى في صفوف الأمة المحبة والوئام والألفة والإنسجام، وكان ذلك ديدنه حتى آخر لحظةٍ من حياته الشريفة، وهذه هي بعض تجليات رسالة النبي ﷺ.

منهاج النبي ﷺ علاج مشاكلنا

ولو نشأت الأمة حقاً على منهاج الرسول الأعظم ﷺ، وعاشت سيرته المباركة لما كانت اليوم تعاني من أية مشاكل تُذكر، إلّا أنها لما صارت تعيش الغربة عن واقع رسالتها، ولم تكرِّس قيمها الإسلامية في واقعها، فمن الطبيعي أن يأتي الحكام الطغاة ليتسلطوا عليها، وينفذوا الأدوار الإجرامية ضدها، فلو كان مجتمعنا محمدياً قرآنياً لما فسح المجال لأي طاغية ليعيث بمقدراته، ويتسلّم مقاليد أموره رغماً عن إرادته، فالمجتمع المحمّدي هو مجتمع المسؤولية، والوحدة، والحب، والتعاون، والتكافل، ومجتمع التحدي والشهادة.

ولذلك ينبغي علينا أن نبني مجتمعاً صلباً إيمانياً صادقاً يتحدى كلّ من تسوِّل له نفسه أن يصنع من نفسه دكتاتوراً يتسلط على رقاب الشعوب المسلمة.

المسلمون وخطر الإبادة

إنّ المسلمين يواجهون اليوم خطر الإبادة، فلا مجال للجدل في بعض القضايا الهامشية، كما أنه لا مجال للعمل البطيء المتعثِّر في هذه الفترة، فهذا الظرف يتطلب عملاً جاداً ودؤوباً، ومن أجل أن نرتفع بالساحة الإسلامية إلى مستوى التحدي والتصدي؛ أرى ضرورة العمل بالإرشادات والوصايا التالية:

١- لنسعَ من أجل صنع دوائر إيجابية يتداخل بعضها مع بعض كالموجة التي تنطلق من وسط دائرة ليتسع مداها إلى الدوائر الأوسع، فلا يجوز اليوم لأبناء الحركة الإسلامية أن ينعزلوا وينكمشوا على أنفسهم. وليرحب كلُّ واحدٍ منا بأي إنسان يمد له يد العون لإنقاذ بلاده وشعبه، ولنبدأ جميعاً بفكرةٍ جديدةٍ وإنطلاقةٍ جديدةٍ.

صحيح أنَّ هناك نقاط إختلاف ولكننا عندما نجد نقاط الوفاق، وعندما نستطيع أن نتمحور حولها، ونعتمد عليها، فإن هذا يعني أنّ نقاط الخلاف ستنفعنا في مجالاتٍ كثيرةٍ، خصوصاً إذا عرفنا أنّ من طبيعة المجتمع أن يعيش أدواراً مختلفةً من حيث الطبقات، والجنسيات، والتوجهات.

٢- كلُّ عملٍ يسهم في إضعاف أنظمة البغي والجور، ويساعد على

تنمية قوى المعارضة للطغاة والمستكبرين هو عمل مقبول علينا أنْ نشجعه.

٣- ضرورة العمل في الساحة الجماهيرية دون التقوقع في الدوائر المنفصلة عنها، فلا يخفى أنَّ قيمة الحركات الإسلامية تتجلى في التواصل مع الجماهير، وإبداء الخدمات لهم، فلا بد من أن ندخل أوساطهم من خلال إستشارتهم، والإستماع إلى أفكارهم، وأن تطرح الحركات الإسلامية عليهم في نفس الوقت نظرياتها وأفكارها، ومن الممكن أن يتحقق ذلك بواسطة عقد الندوات والمؤتمرات وغيرها مما تسمح به ظروف كلّ حركةٍ إسلاميةٍ.

إنّ على المتصدين للقضايا الإسلامية أن يفسحوا المجال للجماهير لإبداء آرائها، وما يختلج في صدورها، فإنّ الآثار الإيجابية لذلك ستنعكس على ساحة العمل بصورةٍ واضحةٍ، ومن هذا المنطلق يجب أن يعطوا الجماهير دورها الطبيعي في الحياة ليتعلموا كيف يبادرون إلى إستعادة حقوقهم المسلوبة، والدفاع عنها.

الحوزات العلمية وضرورة التطوير

وفي هذا الإطار أوجّه حديثي إلى الحوزات العلمية بالقول: إنّ التقدم التقني، وتنامي التحديات الفكرية يستدعيان من العلماء أن يلاحظوها

بأفكارهم ونظرياتهم، ومثل هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلّا إذا برمجنا مناهج الحوزات العلمية برمجةً حديثةً وفق تطورات العصر، إذ ليس من المعقول أن نبقى جامدين على البرامج السابقة.

إنَّ الحوزات العلمية بحاجة الآن إلى دمٍ جديدٍ، وإنبعاثةٍ جديدةٍ، فالحوزة التي لا يدرس فيها الطالب الإقتصاد، والسياسة، وسبل مقاومة الطغاة والمستكبرين، لايمكن أن تسمو في سماء التكامل.

وفي هذا المجال كتب أحد الفلاسفة الغربيين في كتابه «**الإمام الصادق عقل الفكر الشيعي**» يقول: إنّ الإمام الصادق عليه السلام لم يورث الشيعة مالاً، ولا سلطةً، وإنّما أورثهم منهجيةً سليمةً لتعلم العلم، فالإمام الصادق عليه السلام بقي وبقي من ورائه التشيع مستمراً في تحدي المتغيرات، وتتجلى هذه الحقيقة أكثر عندما نجد علماء الأسلام تلهج السنتهم على مر التاريخ بذكر الامام الصادق عليه السلام عندما يتباحثون في مختلف أبواب العلم.

دعوةٌ للتجديد

إنّما دعوةٌ مفتوحةٌ لكل العلماء والفقهاء والمفكرين للعمل على تطوير برامج الحوزات العلمية لكي تكون حقاً جهاز دعوةٍ وتبليغٍ في سبيل الله عزّ وجل، وقد يقول البعض أنّه قد تم بعض التغيير في المناهج الحوزوية قبل سنوات، وأنا أؤيد ذلك ولكن لا بد من إحداث تجديد كلّ عقدٍ من

الزمان، مع المحافظة - طبعاً - على الموضوعات الأساسية، أما المتغيرات فلا بد أن تتخذ طريقها إلى عقول الموجِّهين، ثم منهم إلى الجماهير، كما قال تعالى في سورة الأحزاب وهو يصف الرسول ومناهجه، ودوره في توجيه الناس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[١].

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٥-٤٦.

٤

مبدِّد الظلمات ومحطِّم الحواجز

ماهي الظلمات التي بدّدها فجر الرسالة الإسلامية؟

وماهي الصراعات التي أطفأت نارها بعثة النبي محمد ﷺ في غار حراء؟

ولماذا كان الرسول سراجاً منيراً؟

وبماذا بشّر الله عزّ وجل المؤمنين الذين يتبعون هذه الرسالة؟

هذه تساؤلات لا بد أن نتدبر فيها، من أجل الإجابة عليها، ولا يكفي في هذا المجال أن نقرأ القرآن قراءةً عابرةً، ونسلِّم تسليماً قلبياً بما جاء به دون أن نعرف أبعاده وآفاقه، ودون أن نستوحي منه أفكاراً نتبصر فيها لعلها تكون لنا معراجاً ووسيلةً إلى الله سبحانه.

المعرفة شرط اوّل

هناك مسافاتٌ شاسعةٌ وواسعةٌ تفصلنا عن رسول الله ﷺ، وأهل

بيته عليهم السلام، فنحن ما نزال نجهل مقامهم وواجبنا اتجاههم، وبالتالي فإنّنا إذا بقينا على هذه الحال، وارتحلنا عن الدنيا ونحن نجهل أهمية قادتنا، فعلينا أن لا نأمل أن نكون في يوم القيامة ممن تنالنا شفاعتهم، وممن يجالسهم ويحاورهم في الجنّة، ذلك لأنّ المعرفة هي الشرط الأول، فعندما لا تعرف شخصاً مّا فكيف تحترمه وتحبه وتتبعه، وكيف ترجو أن يكون لك شفيعاً وصاحباً؟!

إنّ تلك الظلمات التي كانت سائدةً على البشرية لم تكن ظلمات الفقر والمرض والتخلف والجهل، بل كانت أعمق من ذلك، وهي الجذور الأساسية لمثل هذه الظلمات. إنّها ظلمات العلاقات بين الناس، فهذه العلاقات لم تكن قائمةً على أساسٍ فطريٍ سليمٍ، بل كانت علاقات قائمة على الظلم والإستكبار والإستعباد والتفرقة والعنصرية.

إنّ هذه العلاقات هي الأهم في حياة الإنسان، فهو عندما ينظر إلى الآخرين نظرةً سليمةً، ويؤمن أنّهم إخوانٌ له في الدين، أو نظراء له في الخلق، فحينئذٍ تصلح وتستقيم سائر مواقفه منهم. أما إذا فسدت هذه العلاقة، وهذه النظرة فإن المواقف الأخرى سوف تفسد بدورها، وهذه هي الظلمات الحقيقية التي يشير إليها القرآن الكريم.

إنّ الفلسفات البشرية القديمة والحديثة لا يمكن أن تكون قائمةً إلّا على هذه العلاقة الشاذة؛ أي علاقة العبودية والإستعباد. فنحن لو ألقينا

نظرةً فاحصة على هذا العالم في عصوره القديمة والحديثة لرأينا أنّ علاقة الناس بعضهم ببعضٍ إنّما هي علاقة الذئب بالشاة، فالجزيرة العربية كانت قائمةً على أساس الفروق القبلية والعنصرية، وكانت هذه الفروق تثير الحروب والصراعات المستمرة الطاحنة، وقد كانت هذه الحروب والصراعات إنعكاساً للثقافة الجاهلية المسيطرة على النفوس والاذهان آنذاك، وهذه هي الظلمات التي جاء الإسلام لإزالتها.

عادتْ الظلمات من جديدٍ

وقد سيطرت هذه الظلمات مرة أخرى على البشرية خلال القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر، فقد كانت هذه القرون قروناً مأساويةً في حياة الإنسانية، فأصبح تاريخ الإنسان مجرد حالةٍ من التناحر الذي يُعرف اليوم بالحرب الخفية بين الشمال والجنوب. وقد قسمتْ هذه الحروب البشرية إلى قسمين؛ قسم يُسمى بـ «**الدول المتقدمة**» وآخر بـ «**الدول النامية أو المتخلفة**».

ترى لماذا لم تستطع البشرية رغم مرور قرونٍ طويلةٍ، ورغم الجهود التي بذلتها، ورغم ثوراتها وانتفاضاتها، أنْ تبلغ التقدم، فبقيت تلك البلدان مُتَخَلِّفةً بل وازداد تخلفها هذا، في حين أنّ الدول المتقدمة إزدادت تقدماً وقوةً؟

السبب في ذلك يكمن في أنَّ الغرب يؤمن بفلسفة مزيجة من الفلسفة الدينية المستوحاة من التوراة والإنجيل، والفلسفة اليونانية والرومانية المستوحاة من التصورات البشرية.

من مظاهر الظلمات المعاصرة

إنّ الغرب بدأ يفكر بشكلٍ آحاديٍّ إعتباراً من تلك القرون، فأخذ يتجه نحو الفلسفة المادية البعيدة عن المسحة الروحية والقيم الإيمانية، وعندما ترسخت هذه الفلسفة فيه بدأ باستعمار الشعوب ونهبها بشكلٍ منظمٍ؛ ففي خلال قرنين من الزمان استطاعت البلدان الغربية أن تسرق من أميركا اللاتينية ومن بعض الدول في آسيا الكثير من ثرواتها، وهكذا استطاعت تلك البلدان المستعمِرة أن تنهب كلَّ ما في البلدان الفقيرة من ثروات.

وعلى سبيل المثال: فقد اختطفت البلدان الغربية من أفريقيا ما يقرب من مائة مليون إنسان. وهنا يحق لنا أن نطرح هذا السؤال: ما هي الأسباب التي دفعت البلدان الغربية إلى تلك الممارسات اللا إنسانية؟ إنّها بالتأكيد الأفكار المظلمة والجاهلية التي جاء نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ للقضاء عليها، واقتلاع جذورها. إنّها الأفكار المادية التي انْتُزِعَت منها القيم الإنسانية، والسماوية. وكل المصائب والمآسي والويلات التي نجدها اليوم في البلدان الإسلامية

بشكل خاص وكل بلاد العالَم الثالث بشكل عام، إنما هي من إفرازات تلك الأفكار الجاهلية التي صدَّرها الغرب الى هذه البلاد.

إنّ هذا التخلف هو نتيجة ذلك الإنعطاف الخطير في تاريخ البشرية؛ والمتمثل في تقسيم العالم إلى بلدان متقدمة، وبلدان متخلفة، وقد بُعِثَ النبي ﷺ لمحاربة هذه الظاهرة الطبقية كما تشير إلى ذلك بوضوح الآيات التالية من سورة الأحزاب:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا۞مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا۞وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا۞هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا۞تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا۞وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا۞وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[١].

سبيل الخروج من الظلمات

والآيات الكريمة السابقة جاءت لتؤكد على أنّ الظلمات التي عاشتها البشرية ماهي إلّا ظلمات التمييز العنصري والفروقات الطبقية، فنحن لا

١- سورة الأحزاب، الآية ٣٩-٤٧.

نستطيع أن نغيِّر مسيرة التاريخ، ونبدأ إنعطافاً جديداً إلَّا من خلال مقاومة هذا الفيروس الخطير؛ فيروس الرؤية الطبقية والعنصرية إلى الناس، وإذا ما تمكنّا من أن نقضي على هذه الجرثومة قضاءً مبرماً، فإنّ هذا يعني أنّنا سنستطيع بحول الله تعالى أن نبدأ المسيرة المباركة، ونسير في الإتجاه المعاكس للتيار المنحرف الذي يجرف البشرية الآن.

ونحن إذا ما رأينا أنّ البلدان المتخلفة لم تستطع خلال قرون طويلة من الثورات والمحاولات أن تغير المعادلة السائدة في العالم، فالسبب يكمن في أنّ شعوبها لم تحاول أن تغيّر ما في نفسها، ولأنّ العلاقة بين أبناء شعوب هذه البلدان كانت ذات العلاقة بين الدول الغنية والفقيرة.

ونحن كمجتمع إيماني فإنّ مراكزنا العلمية، ومعاهدنا الدينية يجب أن تكون هي المنطلق. فهي محافل القرآن، والأمكنة التي تسودها الأجواء الإيمانية، وبعبارة أخرى فإنّ غار حراء الذي إنطلقت منه الرسالة الإسلامية السمحاء يتجسّد اليوم في هذه المراكز والمعاهد شريطة أن تستقبل نور الوحي، وتتجاوز الذاتيات والأنانيات والتمايزات، وفي هذه الحالة فإنّنا سنستطيع أن ننشر نور الإسلام في جميع أرجاء العالم، وإلّا فإنّ مآسينا ومصائبنا ستبقى كما هي إن لم نقل إنّها ستزداد سوءاً ووخامةً.

الرؤية العنصرية كفرٌ

إنّ مجرد الإعتراف بالفروق والعنصريات هو كفرٌ بما جاء به نبيّنا محمّدﷺ، وأنا أذكر في هذا المجال أنّه عندما بدأت وثائق الهوية الشخصية (الجنسية) والجوزات بالصدور في البلدان الإسلامية فإنّ فقهاءنارحمهم الله بادروا إلى الإفتاء بحرمة إقتناء المسلمين لهذه الوثائق التي تكرس التمزّق والتشتت في جسد الأمة الإسلامية الواحدة، حتى أنهم أفتوا بحرمة الحج إذا كان يقوم على الجواز والبطاقة الشخصية القائمة على التفريق بين المسلمين.

إنَّ الاسلام استطاع في العصور الماضية أن يخلق أرضًا أسلاميةً واحدةً تضم الفلبين والنيجر، ويوغوسلافيا والنمسا، والجزائر والمغرب، وبلاد الهند والسند، ولكن أين هذا الإسلام اليوم؟ إنّ العالم الإسلامي مجزَّأ إلى أكثر من ثلاثين بلداً، وفي كلِّ بلدٍ عدة أقاليم، وفي كلِّ إقليم الكثير من النعرات الطائفية والعنصرية.

إذا لم نستطع أن نتَّحد تحت لواء الرسالة الإسلامية، ولم يكن بمقدورنا أن ننصهر جميعاً ونذوب في بوثقة واحدة تحت هذه الراية المباركة، فماذا يعني إنتماؤنا إليها، وادِّعاؤنا الإنضواء تحتها؟ إنّه خداعٌ ذاتيٌ أن تحضر -مثلاً - محفلاً يُذكر فيه إسم الرسول ﷺ، وتصلي فيه عليه، ولكن يوجد

بينك وبين أخيك المسلم حاجزٌ من الحواجز الطائفية أو العنصرية وما إلى ذلك من الإعتبارات المادية الضيقة!

مقياس الإيمان الحقيقي

علينا اليوم أن نبدأ بتحطيم هذه الحواجز تماماً كما فعل النبيّ ﷺ؛ فالمجتمع المدني الذي أسّسه ﷺ كان مجتمعاً صغيراً ربّما لم يكن عدد أفراده يتجاوز عشرة آلاف إنسان، ولكنه كان أنموذجاً مشرقاً للمجتمع الإسلامي الكبير الذي بشّر به النبي ﷺ، والذي استوعب بالفعل الشرق والغرب، والشمال والجنوب من بقاع الأرض المختلفة، وجمع كل فئات وعناصر وألوان البشر بلا أيّ تمييز وتفريق.

ونحن أيضاً يجب أن نجعل من تجمعاتنا الصغيرة مثالاً لتلك المجتمعات التي نبشّر بها، ونأمل أن تتشكّل في المستقبل القريب. وهذا هو المقياس الحقيقي لمدى إيماننا بقيادتنا النّبويّة، وإلّا فمن يصدِّق الإدعاءات التي نطلقها في هذا المجال؟ فنحن ندّعي أنّ أميركا والبلدان الغربية تستضعفنا، ولكننا نحن في الحقيقة نُعتبر (أميركا) بالنسبة إلى مَنْ هم دوننا، فنحن بدورنا نُعتبر مستكبرين بالنسبة إلى الجماعات الأخرى التي هي دوننا في القوة والقدرة والنفوذ.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾[١].

ترى لماذا يولِّي الله سبحانه الظالمين على بعضهم البعض؟ السبب في ذلك أنّ الظالم يظلم مَنْ دونه، فمِن الطبيعي أن يسلط الله عليه من هو أقوى منه.

الإنتماء المزدوج سبب المشاكل

ولذلك نجد أنّ الخالق جلّت قدرته يؤكد في بداية سورة الأحزاب على هذه الفكرة التي تتضمنها الآية الكريمة التالية:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

وبعبارةٍ أخرى فإنّ الإنتماء المزدوج هو الذي يسبب هذه المشاكل، فيجب - إذن - أن تكون هناك رؤيةٌ واحدةٌ، وإنتماءٌ واحدٌ، وحركةٌ واحدةٌ في التاريخ، ولذلك يقول تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[٣].

إنّ هذه الخشية التي تتركز في اتجاهٍ واحد، إنّما تصب وتتمثل في خشية

١- سورة الأنعام، الآية ١٢٩.

٢- سورة الأحزاب، الآية ٤.

٣- سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

الله سبحانه وتعالى وحده.

وحدة القيادة الإلهية

ثم يضيف السياق القرآني الكريم قائلاً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[١]، أي إنّ صلتكم بالنبي ﷺ ليست هي صلة القرابة والنسب والدم، إنما هي صلة القيادة الإلهية وتبليغ الرسالة المنقذة لكم من الظلمات الى النور: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾[٢].

وإذا وصلنا إلى هذا المستوى؛ مستوى الذوبان في بوتقة الإيمان، فهناك تنزل علينا الرحمة والصلوات من ربّنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾[٣].

وعندما يخرجنا الخالق تعالى من الظلمات إلى النور، ومن أجواء الثقافة الجاهلية، إلى أحضان الثقافة الإيمانية النورانية، فحينئذٍ نستطيع أن نطمئن الى أنَّ حياتنا الخالدة في الآخرة ستكون في دار الأمن والسلام كما وعدنا الله - جلّ وعلا - بذلك في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا﴾[٤].

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٠.
٢- سورة الأحزاب، الآية ٤٠ - ٤٢.
٣- سورة الأحزاب، الآية ٤٣.
٤- سورة الأحزاب، الآية ٤٤.

٥
منطلق الوحدة

إنَّ الوحدة الإسلامية التي تستند إلى كتاب الله تعالى وقيادة رسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الذين هم الإمتداد الطبيعي له، هي الوحدة المتمسِّكة بحبل الله والمعتصمة بعروته الوثقى؛ فهذا الحبل هو الذي يشد الطاقات الإسلامية بعضها الى البعض الآخر، ويجعل منها كتلة متراصة وبناءً متماسكاً. وهذا الحبل المتين يتمثل - كما قلنا - بكتاب الله وشريعته المقدسة. والنبي ﷺ، ثم الأئمة عليهم السلام هم الذين يعملون على تطبيق أحكام وتعاليم الكتاب والشريعة.

مولد الرسول مناسبةٌ للوحدة

ومن وحي هذه الفكرة فإنّنا نتخذ من ذكرى ولادة رسولنا الاعظم محمّد ﷺ في كل عام مناسبةً للوحدة، فنحتفي فيها بتلك الأصول الواحدة الثابتة التي تجمع طوائف المسلمين، وتجعلهم يداً واحدةً ضد أعدائهم،

وتجعل ذمتهم ذمةً واحدةً يسعى بها أدناهم، وتحيل أهدافهم إلى أهدافٍ مشتركةٍ أو بالأحرى أهدافٍ واحدة.

إنّ الله سبحانه وتعالى شاء أن ينصر المؤمنين، وينصر كتابه المقدس بهم جاعلاً النصر الثاني شرطا للنصر الأول، فقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]، وها هي جماهيرنا المسلمة تهب في كلّ الآفاق لنصرة كتاب الله، مضحيّة بكلِّ غالٍ ونفيسٍ من أجل تحقيق هذا الهدف السامي. فها هو ذا نصر الله آت، وكلّ آتٍ قريبٌ.

الوحدة ليست شعاراً يُردد

إنّ علينا اليوم أن لا نكتفي بترديد شعار الوحدة، بل علينا أن نعمقها في كلِّ بُعدٍ من أبعاد حياتنا، فهي تعني أولاً وقبل كلّ شيءٍ نبذ كلّ أسباب الخلاف، والإعراض عن الأهداف الضيقة المحدودة التي تعرِّض وحدتنا للخطر، ونبذ المصالح والأنانيات التي هي بمثابة السكين التي تطعن المسلمين في خاصرتهم، وتُحولهم إلى فِرَقٍ شتى.

ثم علينا بالإضافة إلى ذلك أن نركز إهتمامنا على ذلك الهدف الواحد وهو إقامة حكم الله في الأرض معتصمين بحبل الله المتجلّي في القرآن والرسول ﷺ، وبعد ذلك يتعيّن علينا أن نتجه إلى أنفسنا وإلى فئاتنا المختلفة لنربط بعضها ببعضٍ في وحداتٍ صغيرةٍ تكبر شيئاً فشيئاً حتى تصبح

١- سورة محمد، الآية ٧.

الأمة جسداً واحداً من أدناها إلى أقصاها.

بالحق يُعرف الرجال

إنّ علينا أن نعرف الحقّ، ثم نقيّم الرجال به، فالحق الذي يُعرف به الرجال تُعرف به أيضا الأنظمة والأقوال والإدعاءات، وهو الذي تهدينا إليه فطرتنا وعقولنا وهدى كتابنا وسنة رسولنا ﷺ، وهذا الحق هو نداء الوحدة. أمّا ما يطلقه هذا وذاك من أقوال تفرّق المسلمين، وتعمل على تقسيمهم إلى فئاتٍ وأحزابٍ متناحرةٍ سواءً باسم الطائفية أم العنصرية أم القومية... أو بأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطانٍ، فإنّها ليست إلّا أصناماً تُعبد من دون الله.

أسباب الوحدة قائمةٌ

وعلينا في هذا المجال أن نتذكر دوماً أنّ المسلمين كانوا وما يزالون تشدهم إلى بعضهم أسباب الوحدة، وعوامل الإتحاد أكثر مما تفرّقهم عوامل الشقاق والنفاق والإختلاف. وعلى الرغم من أنَّ الإختلاف طبيعيٌ بين البشر، وأنّ الله تبارك وتعالى قد خلق بني آدم مختلفين عن بعضهم، وجعل لكلِّ إنسانٍ موقعاً خاصاً ينطلق منه، وجعل له أسلوباً ومنهجا يتمسك بهما، إلّا أنّ أسباب الوحدة ما تزال كثيفة ومركّزة في أوساط الأمة بحيث لا تدع لأبواق الضلالة وعوامل النفاق سبيلاً تنفذ

من خلاله في ضمير الأمة.

وعلى سبيل المثال فإننا عندما نتأمل مهرجان الحج، والأمواج البشرية المتفاعلة فيه والقادمة من كلّ فجٍّ عميقٍ، فإنّنا نشاهد بوضوح تلك الوحدة الحقيقية العميقة الجذور التي لا تستطيع عوامل التفرق أن تنال منها، أو تحدث فيها أيّ خلل؛ فالطواف حول الكعبة هو رمز التمحور حول الحق، والإبتعاد عن المحوريات الباطلة، كما أنّ الإصحار بعرفات في ثوبٍ واحدٍ مشترك، ولإقامة مشاعر مشتركة واحدة، هو رمزٌ لتلك النفوس التي تصارح بعضها بعضاً، كما أنّ الصلاة باتجاه القبلة، وأداء الزكاة والصيام، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ كلّ ذلك يمثل عوامل للوحدة لا أسبابا للنفاق والشقاق.

مثيرو الإختلافات عاجزون

وأما الذين يريدون أن يسلطوا الأضواء على بعض الخلافات التاريخية، أو الخلافات الطبيعية بين البشر، وأولئك الذين يريدون أن يضخموا الإختلافات في اللون أو الشكل أو اللغة أو الإقليم، فإنْ هم إلّا في ضلالٍ مبينٍ، ومحاولاتهم هذه تشبه إلى حدٍ كبيرٍ ذلك الذي ينفخ في الشبك، أو يرسم على الماء، فماذا عساهم يفعلوا ضد هذا الدين المقدس الذي قاوم كلّ تحديات الفرقة عبر أربعة عشر قرنا رغم الشهوات والأهواء

والمصالح، ورغم الضغوط الهائلة من مختلف الجبهات المناوئة. وماذا عساهم أن يصنعوا بهذه الأمة الواحدة التي امتزجت فطرتها بهدى السماء ونور القرآن الكريم؟ وهل ستنجح محاولاتهم من أجل تحريف مفاهيم القرآن، هذا الكتاب الذي ترسخت آياته في قلوب مئات الملايين من المسلمين في أنحاء الأرض؟!

الزبد يذهب جفاءً

إنّ القرآن الكريم يوجه الفكر والعقل، ويبرمج الحياة برمجةً واحدةً بالنسبة إلى الجميع، أما القشريون الذين لا يرون إلّا زبد الحياة، والغثاء العائم فوق سيلها المندفع، والذين يريدون أن يضخموا بعض الخلافات، فإنّهم لا يأخذون بنظر اعتبارهم قول الله جلّت أسماؤه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

فلنكن على ثقةٍ بأنّ هذا الزّبد سيذهب ويزول كما زالت أمثاله في تاريخنا المديد، وكما انمحت كلّ عوامل التفرقة. ولنتخذ من حياة الرسول ﷺ هدىً، ومن كتاب الله حبلاً نعتصم به، ونتمسك ببرامجه ومناهجه، ولنبدأ بتزكية أنفسنا، وتربيتها على أساس حب المسلمين جميعا لكي نكون أذلةً على المؤمنين، أعزةً على الكافرين، ولنعش في أجواء الحقّ متمحورين حول القيم المقدّسة، ولنعمل على تكوين الخلايا الموحدة حتى

١- سورة الرعد، الآية ١٧.

تصبح الأمة الإسلامية أمةً واحدةً، ويتحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[١].

١- سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

٦

النعمة الكبرى والمنّة السابغة

عندما خلق الله سبحانه وتعالى البشر، أراد أن يجعل لهم نعمةً سابغةً تتمثل في هداية الإنسان إلى أرفع مستوى، ولقد شاء عزّ وجل أن يختار من بين أبناء آدم عليه السلام نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله، ومن أجل هذا النبي العظيم، ومقامه الرفيع أسجد الخالق عزّ وجلّ جميع ملائكته لآدم عليه السلام.

الأمة المختارة

وبفضل هذا النبي صلى الله عليه وآله أراد تعالى أن يجعل المسلمين الأمة المصطفاة والمختارة من بين الأمم من خلال توفيقهم إلى أن ينشروا نور الإسلام على الكرة الأرضية كلها، وسوف يُظهر تعالى دينه على أيديهم، فلقد شاءت قدرته أن يجعل هذه الأمة الشاهدة والشهيدة على أهل الأرض جميعاً.

لقد أحبَّ الله سبحانه أن يتجلّى لخلقه بعد أن كان كنزًا مخفيًا، فخلق نور محمّد صلى الله عليه وآله هذا النور الذي أشرقت به السماوات والأرض، والذي كان

سبب وفلسفة وحكمة الوجود، فلولاه ﷺ لما خلق الله تعالى الأفلاك.

وعندما كان النبيّ ﷺ أقرب شيءٍ إلى مقام ربّه عندما كان قاب قوسينِ أو أدنى، قال له جبرائيل عليه السلام: «**تَقَدَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ لِي أَنْ أَجُوزَ هَذَا الْمَكَانَ، وَلَوْ دَنَوْتُ أَنْمُلَةً لاحْتَرَقْتُ**»[1]، في حين أنّ نبيّنا ﷺ تقدم إلى مقام ربّه مسافات لا يستطيع أن يتصورها الوهم والخيال.

مِنّة الله على البشرية

لقد شاء تعالى أن يمنَّ على البشرية فبعث منها رسولاً ليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كما تصرح بذلك الآيات التالية:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ۞ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[2].

وهكذا بُعِثَ النبيّ ﷺ ليرفع هذه الأغلال، ويحرر البشرية من حب المادّة، ومن جاذبية الأرض، ولينطلق في آفاق التقدم، وإذا لم يكن بمقدور

١- بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٨٢.

٢- الأعراف، الآية ١٥٧-١٥٨.

الإنسان أن يكون مثل النبيّ في الرقيّ الأخلاقي والروحي، فليكن مثل سلمان الذي قال النبيّ ﷺ في حقّه عندما اختلف المسلمون بشأنه: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[١].

قيود الأنظمة

إنّ هذا التقدم كان نتيجة التخلص من الإصر والأغلال التي تتجسّد في قوانين وأنظمة هدفها تقييد الإنسان، فهناك الكثير من القيود المفروضة على الإنسان من قبل الأنظمة الفاسدة، سواءً في العصور القديمة أم في عصرنا الراهن، والرسول ﷺ لم يأت لهذا الغرض صدفةً، فلم يكن من المصادفة أن تقع حوادث غير طبيعية عند ولادة النبي ﷺ من مثل إنطفاء نيران المجوس، ومنع الشياطين من العروج إلى السماء واستراق السمع، إنَّ هذه التطورات لم تكن إلّا بداية منعطفات خطيرة ستشهدها البشرية مستقبلاً.

ويحدِّد لنا الله تعالى في الآيات الكريمة السابقة المقتطفة من سورة الأعراف ما يجب أن نفعله تجاه شخصية النبي ﷺ، ففي هذه الآيات يذكر عزّ وجل نعمه على الإنسان عبر الرسول والرسالة، فهناك مزايا أنعم بها الخالق على الإنسانية من خلال الرسول، سواءً تجسَّدت هذه النعم في

١- بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٨٩.

شخصه أم في الرسالة، فهو ﷺ رسول جاء برسالة، وهو لا يتصرف وفق هواه كما يقول تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[١].

وهو - من جهة - ينتمي إلى الأمة الإسلامية، ولا ينتمي إلى أرضٍ ولا قومٍ، ولا إلى أي عنصر آخر، بل هو أسمى من كلّ ذلك.

رسولٌ وكتابٌ ورسالةٌ

وهو - من جهة ثانية - منفصل عن الثقافة الجاهلية ورواسبها وأغلالها وخبائثها، وهو أميٌّ لا يقرأ كتابا، بل هو كتاب بحد ذاته ورسالة، كما يشير إلى ذلك عزّ وجل في قوله: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[٢].

فالتبشير به ﷺ كان موجوداً في كلّ الكتب السماوية وخصوصا في العهدين المقدسين لدى اليهود والنصارى.

وعلى هذا فإنّ منّة الله علينا بمبعث الرسول ﷺ عظيمة، وقد وضع تعالى لنا برنامجاً نَفِي من خلاله بحق الرسول ﷺ علينا، وذلك من خلال الإيمان به ونصرة رسالته:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾[٣]، أي وعظّموه وكبّروه في أنفسهم، ومن

١- سورة النجم، الآية ٣-٤.

٢- سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٣- سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

تعظيم المؤمنين له هو أن ترتفع أصواتنا بالصلاة عليه وآله بمجرد أن يتناهى إسمه الكريم إلى أسماعنا، فماذا نعني بالصلاة على النّبي وآله؟

إننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يصلي عليه، وصلاة الله على الرسول هي في الحقيقة رفع لدرجته ودرجة أمته؛ فنحن عندما نقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ**» فاننا ندعو بصورة غير مباشرة لأمته بالرفعة والمجد والسؤود، وعندما نذكر آله الكرام فلأنَّ المرء إنما يكرم في أهل بيته وفي بنيه، وإكرامنا للرسول صلى الله عليه وآله يتم عبر تكريمنا لأهل بيته الذين جددوا رسالته، وكانوا إمتداداً لشخصيته الكريمة.

التكريم والتعظيم لايكفيان

ثم يستأنف تعالى قائلا: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾[1].

فالتكريم والتعظيم لا يكفيان لوحدهما، بل لا ينفعان إذا لم ننصره، ونصرة الرسول صلى الله عليه وآله تتجسَّد اليوم في نصرة رسالته وخطه.

ونحن ينبغي علينا أن لا نرى شيئاً إلاّ عبر شخصية النّبي صلى الله عليه وآله، كما يشير الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾[2]، ونور الرسول صلى الله عليه وآله يتجلى في القرآن، وسيرته الشريفة التي دعانا الخالق عزّ وجل إلى التأسي بها في قوله عز من قائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ

١- سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢- سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

حَسَنَةٌ ﴾[١].

ترى كيف نجعل رسول الله ﷺ أسوةً حسنةً لنا؟ إنَّ هذا غير ممكن إلَّا من خلال معرفة سيرته، وأفعاله، وسلوكه، ومواقفه السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وكيفية إدارته للأمور، وتعامله مع الناس،ثم جعله أسوةً لنا بمعنى الإقتداء به ﷺ في كل ذلك.

سيرة متميزة

إنَّ سيرة النبي ﷺ بكل تفاصيلها موجودة بين أيدينا، حيث اهتم المسلمون بكتابتها وتوثيقها، فلقد انتشرت الكتابة في الجزيرة العربية بعد انتشار الدعوة الإسلامية، ولذلك فقد تمت كتابة سيرة النبي وأحاديثه ومواقفه ومفردات تعامله مع الناس، وهي أغنى ثروة معنوية للإقتداء بها.

وفيما يلي ننقل بعضاً من مواقفه وسلوكياته السامية الرفيعة مع الناس الذين كانوا يعيشون حوله:

فقد روى أصحاب السيرة أنه لم يُر مرةً يصافح أحداً ثم يكون هو البادئ بسحب يده من يد الطرف الآخر، بل كان ينتظر أن يسحب الطرف الآخر يده منه. جاء في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ لَحَظَاتِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَيَنْظُرُ إِلَى ذَا

١- سورة الأحزاب، الآية ٢١.

وَيَنْظُرُ إِلَى ذَا بِالسَّوِيَّةِ».

«وَلَمْ يَبْسُطْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجْلَيْهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ قَطُّ، وَإِنْ كَانَ لَيُصَافِحُهُ الرَّجُلُ فَمَا يَتْرُكُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ التَّارِكَ»[١].

وكان ﷺ محباً للأيتام، عظيم العطف عليهم، ذلك لأنّه شب يتيماً، وذاق مرارة اليُتم في حياته.

وقد بلغ رسول الله ﷺ مستوى من العدالة لم يستطع أحد أن يبلغه، وفي هذا المجال يُروى أنه ﷺ في آخر أيامه عندما اشتد به المرض صعد المنبر، وبعد خطبة قصيرة قال:

«إِنَّ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ حَكَمَ وأَقْسَمَ أَنْ لَا يَجُوزَهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ، فَنَاشَدْتُكُمْ بِاللهِ، أَيَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَانَتْ لَهُ قِبَلَ مُحَمَّدٍ مَظْلِمَةٌ إِلَّا قَامَ فَلْيَقْتَصَّ مِنْهُ، فَالْقِصَاصُ فِي دَارِ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْقِصَاصِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَائِكَةِ والْأَنْبِيَاءِ»[٢].

فقام إليه رجل من أقصى القوم يُقال له سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله، إنك لما أقبلتَ من

١- الكافي، ج٢، ص٦٧١.

٢- الأمالي للصدوق، ٦٣٤.

الطائف إستقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق، فرفعتَ القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأً.

فقال: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَكُونَ تَعَمَّدْتُ» ثُمَّ قَالَ: «يَا بِلَالُ! قُمْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ فَأْتِنِي بِالْقَضِيبِ الْمَمْشُوقِ».

فلما عاد بلال بالقضيب الممشوق وناوله الرسول ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أَيْنَ الشَّيْخُ»؟

فقال الشيخ: ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي.

فَقَالَ: «تَعَالَ فَاقْتَصَّ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى».

فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله.

فكشف ﷺ عن بطنه، فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار.

فقال رسول الله ﷺ: «يَا سَوَادَةَ بْنَ قَيْسٍ! أَ تَعْفُو أَمْ تَقْتَصُّ؟

فقال: بل أعفو يا رسول الله.

فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوَادَةَ بْنِ قَيْسٍ كَمَا عَفَا عَنْ

نَبِيِّكَ مُحَمَّد»[١].

دراسة السيرة النّبوية ضرورة

وهكذا فإن السيرة النّبويّة جديرة بالدراسة، وإنّ عدم دراسة هذه السيرة إنما هو إجحاف بحق النّبي ﷺ. فهذه السيرة يجب أن تُكتب في كلّ عصر بلغة الزمان وبما يتلاءم ومتطلبات العصر، وتتأكد هذه الحاجة بالنسبة إلى الرساليين في كلّ مكان.

ولذلك فإنَّ كلّ إنسانٍ رساليٍ يجب أن يكون في مستوى وعي ومواجهة الأحداث، وأن يأخذ من سيرة الرسول الأعظم ﷺ ما يذلل أمامه الصعاب، وعلى سبيل المثال: فإنه ﷺ كان قلبه يمتلئ حبّاً لأمته، فعندما خرج من مكة إلى الطائف، ولاقى ما لاقاه من أذى وجفاء، ورُمي بالحجارة حتى سال الدم من قدميه، فإنّه مع كلّ ذلك رفع يديه إلى السماء قائلاً:

«**لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِك**».

وأيضاً في يوم حنين حينما سقط ﷺ إلى الأرض على أثر ضربة وقد انكسرت رباعيته، والدم يسيل على حرّ وجهه، قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**».

١- الأمالي [للصدوق]، ص٦٣٥.

هذا هو الحب العظيم الذي ينبغي لكلّ إنسانٍ رساليٍ أن يضمره في قلبه لأمته، فعلى الرغم من المآسي التي كان الرسول ﷺ يعيشها في حله وترحاله إلّا أنه كان يدعو بالهداية لقومه، ويرى أن هذا العمل وما يسببه من مآسٍ ومحن بالنسبة له إنّما هو قليل في ذات الله تعالى.

إنّ توسلنا بالرسول ﷺ يستلزم قراءة التاريخ لمعرفة السيرة النّبوية، فاليوم هو يوم الأحزاب، وقوى الكفر والنفاق والضلالة متآلفة الآن ضد المسلمين في حرب شعواءٍ ضدهم، وعلى شعوبنا أن تستلهم من السيرة النّبوية المباركة الزخم الثوري لمواجهة تلك الحرب، ولتعلم هذه الشعوب أن الله عزّ وجلّ سوف ينصر المجاهدين الرساليين في كلّ مكان.

إنَّ دراسة السيرة النّبوية تمثل ضرورة لكل من يسير على نهج النبي ﷺ، خصوصاً إذا إزدحمت الأحداث، وضاقت الحياة بالمؤمنين، ومن هنا فإن على المفكرين والعلماء أن يعيدوا صياغة السيرة النّبوية بحيث تتلاءم مع مقتضيات العصر، لأن فيها من المرونة ما يوافق وينسجم مع كلّ عصر ومكان، ومن هنا يجب نبذ الخلافات، وتوحيد الصف، والإلتفاف حول راية الرسول ﷺ من خلال تنفيذ أوامره، وتعظيمه، وتوقيره، وجعله محور الوحدة الإسلامية، ورمز توحيد الطاقات.

٧
مدرسة العزة الإيمانية

من أهم الدروس التي يتلقاها الإنسان من القرآن الكريم هو درس الحياة الذي يعطي الإنسان بصيرة للتعايش مع الحياة، وقوة إرادة للتعامل مع الذات.

والقرآن الكريم يختار لنا نماذج من أسمى وأرفع الشخصيات البشرية وهم الأنبياء عليهم السلام ليكونوا لنا قدوة وأسوة، ولكن ترى كيف يكون النّبي قدوة للإنسان؟

إنما يكون ذلك في حالة تذكر الإنسان للنّبي، والسير على نهجه، ولذلك فقد أُمرنا أن نصلي على النبي الأعظم ﷺ كلما ذُكر اسمه، ذلك لأنَّ الصلاة على الرسول ذِكْرٌ له، وذِكْرُ الرسول شرف لمن يذكره، وعلاقة وصلة بينه وبين من يذكره، وهو في نفسه درس ومنهج لهذا الشخص الذي يذكره.

الأنبياء قدواتنا العليا

ولهذا نجد أن القرآن الكريم يأمرنا في سورة مريم أن نذكر الأنبياء في الكتاب، وعلى ألسنتنا. فلا يكفي أن يؤمن الإنسان بالأنبياء عليهم السلام، فكلّ مسلم يؤمن إيماناً ظاهراً بالنّبيين جميعاً، فمن أوليّات العقائد الإسلامية الإيمان بجميع الأنبياء، وعدم التفريق بينهم. ومع ذلك فإنّ هذا الإيمان لا يكفي لجعل الإنسان تابعاً للأنبياء، وخطهم وسيرتهم ومنهجهم، ولا يزوِّده بالقوة التي يحتاجها في مواجهة صعوبات الحياة، ولا يجعله يحصل على البصائر التي يحتاجها لمعرفة الطريق السليم بين الطرق المختلفة المتزاحمة عليه.

إنّ ذكر الأنبياء، والإنتماء إليهم، والإتصال بخطهم هو الذي يمنح الإنسان المنهج الصحيح، والبصيرة السليمة، ولذلك فإن القرآن الكريم يؤكد على ذلك عند ذكره للأنبياء وخصوصاً في سورة مريم، فبعد أن يذكر تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام، وكيف أنه عندما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله رزقه بإسحاق ويعقوب، هذه الذرية المباركة التي ظلت تهب النور والهدى للأجيال، بعد كلّ ذلك يقول عزّ من قائل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1].

١- سورة مريم، الآية ٥٠.

فلقد أصبحت هذه الذرية الطيبة - ذرية إبراهيم عليه السلام - ذِكْراً شريفاً عبر التاريخ، فلقد جعل الله تعالى لهم ألسِنَة خير تلهج بذكرهم، فإذا كان هناك مَنْ عَذَّبَ إبراهيم عليه السلام في حياته وآذاه، وهجَّرَه من بلده وموطن إقامته، فقد ظهر في التاريخ بعد ذلك آلاف الملايين من البشر ما زالوا - حتى يومنا هذا - يلهجون بذكر إبراهيم، ويسلِّمون عليه متى ذُكِر.

ثم يذكر الله عزّ وجلّ مثلا آخر فيقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾[١].

فقد قرّب الله تعالى موسى؛ ذلك الراعي المطارَد الذي كانت تلاحقه أكبر قوةٍ بشريةٍ في ذلك اليوم، فنجَّاه وأعطاه الإمامة والقيادة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٢]. فقد ذكر عزّ وجلّ هذا النّبي لأنه كان صادقاً في وعده، وبسبب هذا الصدق والإلتزام ذكره الله تعالى وأمر كلّ إنسان مؤمن بأن يذكره.

ثم يذكر جلّ شأنه مثلاً آخر حيث يقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[٣]، فلأنه كان صدِّيقاً في القول

١- سورة مريم، الآية ٥١-٥٣.

٢- سورة مريم، الآية ٥٤.

٣- سورة مريم، الآية ٥٦-٥٧.

والعمل، ولأنّ حياته كانت حياة صدق، رفعه الله مكاناً علياً وكان من الواجب علينا أن نذكره.

ثم يخلص تعالى إلى القول بشأن أولئك الأنبياء الكرام: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1].

فهؤلاء الأنبياء العظام الذين يجب على المؤمن أن يقتدي بهم، ويجب على النّبي أن يذكرهم في الكتاب، إنما تجمع صفاتهم الخيرة المباركة صفة أصيلة وجذرية وهي إتصالهم بينبوع الخير والقدرة والهيمنة والسلطان المتمثلة في الله سبحانه وتعالى.

سرّ سموّ الأنبياء

إن هذا الإتصال الروحي بين قلوبهم وبين معرفة الله هو الذي أعطاهم تلك الصفات الخيرة، وهو الذي جعل إسماعيل صادق الوعد فدفعه إلى أن ينتظر رجلا لمدة عامٍ كاملٍ في منطقة الميعاد بعد أن نسي ذلك الرجل ميعاده معه[2]، فما الذي جعل هذا النّبي في هذا المستوى الرفيع من الصدق والإلتزام بالعهد والوعد؟

١- سورة مريم، الآية ٥٨.

٢- أنظر: مستدرك وسائل الشيعة، ج٨، ص٤٥٨.

السبب في ذلك دون شكٍ هو الإيمان الصادق وعبادة الله والخضوع المطلق له ولآياته، فالله تعالى يقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1].

فالقلب الواحد لا يحتمل إيمانين ولا سلطانين، فإما أن يكون ذكر الله والإتصال به ومعرفته هو السلطان على قلب الإنسان، وإما أن يكون هذا السلطان متمثلا في الشيطان والطاغوت وسائر آلهة الدنيا المزيفة.

ولقد استطاع هؤلاء الأنبياء القدوات أن يطردوا سلطان الشيطان، فبقي في قلوبهم سلطان الرحمن، ومن هذه القلوب قلب إبراهيم عليه السلام الذي جعله راسخ الإيمان وهو على منجنيق نمرود للرمي به في النار، حيث جاء عمه إليه، فلطمه لطمة وقال له: «**إرجع عما أنت عليه**»[2]. إلّا أنَّ هذا النّبي العظيم لم يستجب له رغم ما واجه من مصاعب وأذى.

وكان نمرود قد أمر بجمع الحطب في سواد الكوفة عند نهر كوثى من قرية قطنانا، وأوقد النار، فعجزوا عن رمي إبراهيم، فعمل لهم إبليس المنجنيق فرُمي به.

فتلقاه جبرئيل في الهواء فقال: «هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ»؟

فَقَالَ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلاَ، حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

١- سورة مريم، الآية ٥٨.

٢- بحار الأنوار، ج١٢، ص٣٢.

فاستقبله ميكائيل فقال: «إِنْ أَرَدْتَ أَخْمَدْتُ النَّارَ، فَإِنَّ خَزَائِنَ الْأَمْطَارِ وَالْمِيَاهِ بِيَدِي».

فَقَالَ: «لَا أُرِيدُ».

وأتاه ملك الريح فقال: «لَوْ شِئْتَ طَيَّرْتُ النَّارَ».

قَالَ: «لَا أُرِيدُ».

فَقَالَ جَبرْئِيلُ: «فَاسْأَلِ اللهَ».

فَقَالَ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»[1].

ومع ذلك فإن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أن المصير الذي إنتهى إليه هو إمتحان من الله تعالى، فإذا كانت المصلحة والحكمة الإلهية في أن يحترق بالنار، فإنّ هذه النار ستصبح بالنسبة إليه جنّة، لأنَّ نتيجتها رضوان الخالق، وربّما أراد عزّ وجلّ أن يبتليه بما هو أعظم فتنة، فالإنسان الذي يُرمى به إلى النار وهو يحس بلهيبها فيصمد رغم ذلك فلأنّ قلبه متصل بالرّب، ولأنه يعلم أن التقدير الإلهي هو التقدير السليم مهما كان، ولذلك فقد تحولت هذه النار إلى بردٍ وسلامٍ كما يروي لنا ذلك تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2].

إن القلب المتصل بالله هو أشد وأقوى من الجبال، وأكثر بأسا من

١- بحارالأنوار، ط بيروت، ج٦٨، ص١٥٦.

٢- سورة الأنبياء، الآية ٦٩.

الحديد والفولاذ، والإتصال بالله عزّ وجلّ يمثل مفتاح شخصية الإنسان المؤمن؛ فبعد أن يأمرنا القرآن الكريم بتذكر الأنبياء والرسل، فإنه يخبرنا أن السبب في كونهم أبطالاً لايخشون شيئًا، وأن سرّ بطولتهم وعظمتهم، وسرّ استقامتهم وصبرهم وصدقهم يكمن في اتصالهم بربّ العباد، وحينما تتوفر هذه الصفة في الإنسان فإنّه سيكون عزيزاً.

العزة الإيمانية

والعزة كلمةٌ واحدةٌ لها معانٍ بعدد أنفاس الخلائق، وحبات الرمل في الصحارى، وقطرات الماء في البحار، فعزة النفس هي التي تجعل الإنسان المؤمن يسمو بنفسه عن الدنيات، والسفاسف، وتوافه الحياة، وهي التي تجعل هذا الإنسان صابراً قوياً لا تهزه المصائب لأنه يعتقد أنه أكبر منها، كما أنّ العزة هي التي تجعل الإنسان المؤمن صامدا أمام التعذيب، والإغراء، والدعاية المضللة، وأمام كلّ الصعوبات في الحياة، وهي التي تدفع الإنسان إلى أن يختار - في لحظةٍ - الموت بعزة على الحياة بذلة.

والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لأنهم يقدِّرون أنفسهم ويكرمونها ويؤمنون أنها أكبر مما حولهم؛ لا لإنّها هي الكبرى، بل لأن الله جلّ وعلا هو الأكبر. فهذا النداء الربّاني (الله اكبر) ينعكس في قلوب المؤمنين وفي ضمائرهم، زارعاً عظمة الله في قلب المؤمن. فمادام مؤمناً فهو أعظم بإيمانه

لا بذاته، وبتوكلّه على الله، لا باعتماده على نفسه.

المحرك الأول للتاريخ

وإذا بحثنا في عمق التاريخ، وتدبرنا في حوادثه، وقرأنا ما خلف سطوره لوجدنا أنّ هذه العزة كانت المحرك الأول فيه. فالإستقلال هو روح التاريخ، والعزة هي روح الإستقلال، وإلّا فلماذا طلب الإنسان على مر التاريخ الإستقلال، ولماذا ضحّت الشعوب في سبيل هذا الإستقلال بكلّ غالٍ ونفيسٍ؟ ذلك لأن العزة هي روحها، وبقدر عزّتها وحجم إيمانها بذاتها وارتفاعها إلى مستوى قيمها تكون تضحيتها في سبيل عزّتها. فعندما نرى شعبا مهانا ذليلا وخاضعا لطاغوت، ومستسلماً لإرهاب ملكٍ جبارٍ، فلا بد أن نعرف أن مستوى تضحيات هذا الشعب في سبيل قيمه منخفض، وبالتالي فإن إعتداده بنفسه، وإيمانه بذاته، وعزته بنفسه ضعيفة.

فالعزة - إذن - هي التي تحرك التاريخ بل تكاد أن تحرك السياسة الدولية أيضا، فهي تسمى اليوم في لغة الصحافة بـ(الهيبة)، فيقال -مثلاً- أن هيبة الولايات المتحدة تمرغت في أوحال فيتنام، فإذا كانت أميركا تمتلك عشرات المليارات من الدولارات ولكنها لاتمتلك وراء هذه القوة عزة في النفس فإن هذه الدولة سوف تتحطم.

ولذلك نرى أن استراتيجية الإنسان المؤمن في الحياة ليست قائمة على أساس الحصول على المال والسلطة والثروة، بل على أساس نيل العزة.

وهكذا فإنّ من الواجب علينا أن نزرع حب الله في نفوس الأمة، هذا الحب الذي يتحول إلى عزة إيمانية بالنفس، لا تلبث أن تتحول إلى درع الإستقلال الذي سيتحول بدوره إلى حصنٍ للتقدم المادي والمعنوي.

الفصل الثالث

نهج الحياة

١ـ نهج الحياة في سيرة النّبي الأعظم

٢ـ مبعث الهدى

٣ـ رسل اللّه.. رمز التحدي

٤ـ الرسالة الإسلامية مشروع البشرية جمعاء

٥ـ العالم يبحث عن رسالة محمد ﷺ

٦ـ كيف ندعو العالم الى نهج النّبي ﷺ

١

نهج الحياة
في سيرة النّبي الأعظم ﷺ

لا أحلى ولا أروع من الحديث عن سيرة نبي الإسلام الأعظم ﷺ، لاسيّما إذا كان الحديث حديثا يخرج من القلب ليدخل إلى القلب؛ لا تحده الحدود ولا تؤطره الأطر، فهو يمتد بامتداد نور النّبوة، ويتخلد بخلود الرسالة.

ونشير في هذا الحيز إلى مفصل مهمٍ من مفاصل السيرة المحمّدية التي تشكل بدورها منعطفا ذا بال في هذه السيرة. إذ كان الرسول ﷺ واقفاً ثابتاً بقامته التي ارتفعت في الفضاء؛ على جبل مشرفاً على هضبات مكة المكرمة، كانت نظراته الوقادة متجهة صوب الكعبة وهي تزهو بجلالتها وعظمتها وقد مضى على حمله الأمانة الإلهية المقدسة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة؛ حملت في كلّ لحظة من لحظاتها آيات العزم الراسخ والتحدي

العظيم والألم الرهيب.

كان الرسول ﷺ واقفاً يودع بيت الله الحرام؛ فهذه مكة المكرمة؛ أقدس أرض خلقها الله سبحانه وتعالى، وأعظم بقعة شرّفها الله، حيث ولد الرسول ﷺ وترعرع، وحيث مهوى أفئدة المؤمنين، وحيث محجة الأنبياء والأوصياء، وحيث مهبط الملائكة المقربين. هذه مكة يودعها حبيبها على انفراد.. في لحظة اختصرت كلّ ثقل الرسالة وهمومها. فهو عانى الأمرين من أهل مدينته ولم يَرَ منهم إلا العناد والغرور، ولم يتلق منهم - إلا القليل ممن آمن به - سوى توجيه التهم الرخيصة، ولقد بلغ بهم حقدهم الأعمى على رسولهم الرحيم أن وقعوا بالمستضعفين من أصحابه ممن لا ظهير لهم تعذيبا وتقتيلا، وكان السبَّاقون للقاء الله آل ياسر الذين نُكِّلَ بهم حتى الإستشهاد، وإزاء هذا المنظر المفجع لم يكن يسع الرسول ﷺ إلا أن يحث أصحابه وينفخ فيهم روح التحدي والإستقامة حتى يأتي نصر الله الذي وعده.

معاناة الرسول الأليمة

وقد يتذكر النّبي الأعظم ﷺ عند وقفة وداعه الأخير: كيف حاصره مشركو قريش في شعب أبي طالب، حاصروه وأتباعه المؤمنين حصاراً منعوا فيه الناس من الإتصال بهم واتصالهم بالناس، حصاراً إضطروا فيه

إلى أكل ما تبقى من الأوراق الصفراء في أشجار الشِّعْب الجرداء إلّا منها.

وفي خضم آلام سنين الحصار الثلاث توفي عم رسول الله ﷺ وكفيله.. مؤمن قريش أبو طالب عليه السلام، كما توفيت في السنة ذاتها زوجته الوفية خديجة الكبرى أم المؤمنين عليها السلام.

وبعد معجزة الأرضة التي يحدثنا التاريخ الإسلامي عنها؛ حيث بعث الله الأرضة لتأكل وثيقة التآمر الجاهلي التي قضت بمحاصرة الثلة المؤمنة في الشِّعْب المشار إليه وتحريم التعامل معهم، وأخبر - جلَّت قدرته - رسوله الكريم بنبئها، فعرض الرسول ﷺ التحدي الإلهي للمشركين، الأمر الذي إضطرهم فيه إلى فك الحصار، بعد أن لحقهم الخزي والعا .

وعاد الرسول ﷺ إلى مكة؛ ولكن دون حماية من عمه الرؤوف أبي طالب، بل تحت حماية أعدى أعدائه أبي لهب الذي انتهت زعامة بني هاشم إليه آنذاك. أبو لهب الذي كان يبتدع الأساليب الشيطانية لايذاء الرسول الأكرم ﷺ، وكان حريصا كلَّ الحرص على تشويه سمعة الرسول وتوجيه التهم إليه في أوساط القبائل والعشائر القادمة ألى مكة وأسواقها ومشاعرها، ولقد كان يمشي وراء الرسول ﷺ كظلِّه.. كلّما مشى إلى وفد من الوفود داعياً إياهم إلى الإسلام والتصديق به، فكان أبو لهب يأتي الوفد منهم قائلا: إنَّ هذا إبن أخي وأنا عمه وهو كذا وكذا، وينسب إليه التهم الرخيصة. ووصل به الأمر أن فوض الأمر لمشركي قريش لأنَ

يدبروا مؤامرتهم الخبيثة لاستهداف حياة الرسول ﷺ ونفسه، على أن يضيع دمه الشريف بين القبائل العربية من قريش وحلفائها.

لحظة الوداع المقدسة

هنا؛ كانت لحظة الوداع، بعد أن عهد الرسول ﷺ إلى الإمام عليه السلام أن يبيت في فراشه ومضى إلى سبيله باتجاه المدينة، باتجاه إقامة الدولة الإسلامية، وفتح صفحة جديدة من صفحات التحدي والجهاد.

وحينما وصل ﷺ إلى تلك القمّة ووقعت نظرته الشريفة على بيت الله الحرام وما حَوَتْهُ أركانه الشريفة من سنيِّ الجهاد المضني لثلاثة عشر عاماً، دمعت عيناه وأثقلت الهموم برمتها على قلبه الطاهر، فما كان من الوحي إلّا أن نزل عليه بـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1].

أي أن ثمّة عودة إلى مدينتك مكلّلاً بالنصر وبالعزة. وإذ ذاك اطمأنت نفس رسول الله ﷺ فترك مكة مُيَمِّماً وجهه شطر المدينة المنورة. فكانت مراحل تأسيس الدولة الإسلامية العظيمة بما تعني من سَنِّ القوانين وتنفيذها، وما تعني من جهاد قَلّ أن شهد التاريخ له مثيلاً. فمن تربية المؤمنين وتهذيب أنفسهم وسلوكياتهم، حتى خوض الغزوة تلو الغزوة، الى الوقوف بوجه المنافقين الذين كان خطرهم على وجه الحتم أشد وأعتى من خطر أعداء ماوراء الحدود.

---

١ - سورة القصص، الآية ٨٥.

وعلى أية حال، فإنَّ الباحث والمهتم بشؤون سيرة المصطفى ﷺ لا يقف عند حدث حتى تأخذ بلبِّه أحداث أخرى، ولا يتابع نقطة معينة في هذه السيرة المباركة حتى تستهويه نقاط غيرها، قد تكون بدورها أشد إلحاحاً لإضفاء مزيد من الأضواء عليها.

تساؤلات

والآن، هناك تساؤلات كبيرة تفرض نفسها علينا في هذا الإطار، ولعل الإجابة عليها تدلنا على السر الأول الذي مكّن الرسول الأكرم ﷺ لأن يكون الرجل الصالح الأول على مر التاريخ، وأن يكون قائدا للأمة الوسط، وبانياً لحضارة القبائل العربية المتناحرة؛ الغارقة في ظلمات الجهل والشرك والخوف والسيف والإغتيال والثأر.. وكيف تحولت هذه القبائل الجاهلة إلى أمة إسلامية - بقيادة هذا الرسول الفذ - ذات حضارة عريقة لا نزال نحن المسلمين، بل وغير المسلمين من الأمم الأخرى، نَنعُمُ بظلها بما تمثل من عمقٍ فكريٍ وعلميٍ وأدبيٍ و... و...

وماذا كانت لدى الرسول ﷺ من وسائل في عملية بنائه الصرح الإسلامي؟ ونحن الآن بعد ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ماذا يتوجّب علينا أن نقوم به حتى نعيد تلك الأمجاد، ونعود إلى تلك الحضارة التليدة والتي كان الحاكم يخاطب الغمام: امطري.. شرقي غربي فخراجك يأتيني؟

إنّ هذا سؤال أو اسئلة لا بد من العثور على أجوبة لها لنتمكن بذلك من أن ننقذ أنفسنا من هذا الواقع المتخلف ونذهب بها إلى واقع آخر.

ركائز العمل القيادي

هناك ثلاث ركائز أساسية إستطاع الرسول القائد ﷺ عبرها أن يغير وجه التاريخ، وكلّما أردنا أن نعيد الأمجاد الماضية لا بد من الإلتجاء إليها باعتبار أن معرفتها واستفادة العِبر منها تمثل الدواء الناجع لما نصبو إليه.

١- إسقاط حجب الشرك

الركيزة الأولى: إنّ النّبي الأعظم ﷺ إستطاع بحكمته البالغة أن ينشر القرآن وتعاليمه القيمة وأن يسقط حجب الشرك عن البشرية.

فالإنسان بذاته ووجدانه موجود إلهي وربّاني مفطور على الإيمان والتسليم بوحدانية الله تبارك وتعالى. وهذه الفطرة تدعو الإنسان إلى تحمل المسؤولية في الحياة، وتدعوه إلى النشاط والحيوية، إلّا أن حُجُب الشرك تتكالب عليه لتمنعه من الإشراق والتوحيد الذي هو رأس أمارات الحياة والوجود لديه. والإنسان في واقع الأمر يعيش صراعاً داخلياً مريراً؛ متعدد الصور والأشكال؛ متفاوت الدرجات، سواءً اعترف بوجود هذا الصراع أو أصر على إنكاره، ذلك لأنَّ المرء بطبيعته عابد لله تعالى متشرف بالخضوع إليه؛ وبفعل تآمر النفس ووساوس الشيطان وضغوط الزمن

يتحول عبداً لعبد آخر أو صنم أو غير ذلك من الآلهة المزيفة! فالبعض من القوم كان يعبد التمر، والآخرون كانوا إذا مروا على صخرة تتمثل فيها صورة إنسان أو حيوان أو ما يشبههما بمحض الصدفة، فإنهم يتوقفون عندها ويعتقدونها إلهاً من دون الله سبحانه. إنّ هذه الحال تعد الذروة في الفراغ الفكري والعقيدي، وليس ذلك إلا نتيجة من نتائج الخضوع لحُجُب الشرك.

فالنّبي المصطفى ﷺ واجه واقعاً مريراً كهذا الواقع، وبفضل وتوجيه الآيات القرآنية الكريمة، وبالعمل على إنتزاع داعي الشرك هذا تحول الإنسان في الجزيرة العربية الذي لم يكن غير كتلة من الركود والقيود والأسر؛ تحول إلى شعلة من النشاط والحيوية والفاعلية.

إذن؛ فالداعي الدافع الذي يتجسد في رغبة بني البشر في التملص من المسؤولية الملقاة على عاتقه بالفطرة، المسؤولية التي يعبر عنها القرآن المجيد بـ"الأمانة" التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، الأمانة التي هي أثقل من النماذج - آنفة الذكر - على قلب الإنسان الذي يحاول التهرب من حملها، فتراه يتوسل بالشركاء والآلهة المزعومة من دون الله تعالى. فهو قَيَّدَ نفسه ومصيره بالإعتقاد الأجوف بأن الخشب أو التمر أو الحجارة أو رئيس القبيلة سيقربه من الله زلفى وينقذه من نار جهنم، وهو في ذلك ما يخدع إلّا نفسه.

إنّ التاريخ يشير إلى أنَّ الأزمة البشرية في هذا الإطار لم تكن أزمة عقلية أو ذهنية. فالفكر والتفكير بأبسط أنواعه وتركيباته يؤكد للإنسان أنّ الصنم - الحجارة - لا يضر ولا ينفع. بل إنَّ أزمة بني الإنسان التاريخية لا تعدو كونها أزمة نفسية، وهذه الأزمة هي التي أودت بالناس لأن تَعبُد الأصنام، ولاتزال تتوسل بالأوهام والتمنيات على أشكالها العديدة.

لقد جاء القرآن؛ وجاءت سيرة الرسول ﷺ لتحذر الإنسان من أن هذه الأصنام ليست لا تنفع ولا تضر فحسب، وإنما تهوي به إلى النار حيث المصير ذي الأهوال الخالدة إلّا أن يشاء الله. كما صرح الله تعالى في القرآن بأنّ الأموال والأولاد والحسب والنسب ليست ميزانا يُعتمد لتحديد المصير الموعود.

وما أروع صراحة الرسول ﷺ مع الناس إذ كان يوجههم نحو تحمل مسؤولياتهم الموكولة اليهم. لقد أعلن لهم بكلّ بساطة ووضوح: إن الإيمان لا ولن يُدرك بالتمني، ولكنه وقرٌ في القلب يصدقه عمل الأركان، وإنَّ الإيمان من دون اقترانه بالعمل الصالح ليس إلّا كذبة تافهة.

والقرآن الكريم لم يحثنا على الإيمان إلّا ويحثنا معه على العمل الصالح. ولقد ضرب لنا الأمثلة المتنوعة على ذلك، وذكر قصص أسلافنا من الناس ليوضح في طياتها محاسن إقتران الإيمان بالعمل الصالح، وليوضح أيضا الصورة المضادة لذلك.

كلّكم مسؤول

وعلى العموم، فإنّ القرآن الكريم وسيرة الرسول الأكرم ﷺ أسقطا حجب الشرك عن أعين الناس؛ فإذا بهم يواجهون مسؤولياتهم بشكل مباشر. وحينما قال لهم نبيهم ﷺ: **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»**[١] تجلت الإنسانية في ضمائرهم وحركاتهم، وتحول أولئك الجامدون الساكنون، أولئك النّاس الذين كانوا يحترفون تضييع أعمارهم في اللهو واللعب والخرافات، تحولوا إلى أمة حيّة فاعلة، وأصبحوا رقماً يحسب له سكان الأرض جميعاً حسابه. وقد وصف الرسول ﷺ في حديث رواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وصف المؤمنين بأنهم: **«رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ أُسْدٌ بِالنَّهَار»**[٢].

إنَّ هؤلاء المؤمنين صنعهم الرسول المصطفى بفضل إزاحة حجب الشرك عن قلوبهم، والتي في مقدمتها التمنيات والأماني.

ولم يوجه القرآن الكريم النصح للمسلمين فحسب، وإنما توجه بالخطاب إلى أهل الكتاب الذين كانوا يستحلُّون الخضوع للأوهام القائلة بأنّ مجرد الإنتماء إلى دينهم كاف لهم عن السقوط في جهنم.

وتؤكد الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ

١- بحارالأنوار،ج ٧٢،ص ٣٨.
٢- الكافي،ج٢،ص٢٣٢.

وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[١]، تؤكد أن شرط الخلاص هو الإيمان والعمل الصالح. فبمجرد إدّعاء أحدٍ مّا إنتماءه إلى الإسلام أو اليهودية أو النصرانية أو الصابئة غير جدير - بالطبع - لأن يكون المقياس في تحديد مصير الإنسان في الدار الآخرة، بل لعل العكس هو الصحيح؛ باعتبار أن الإيمان المجرَّد وغير المقرون بالعمل الصالح قد يؤدي بالإنسان إلى المهلكة التي حذَّره الله منها مراراً.

٣- المنفذ الأول إلى الجنّة

أما الركيزة الثانية في إرتقاء الرسول ﷺ قمة القيادة فهي: إقناع الناس بأنَّ العمل الصالح هو المنقذ الوحيد. فحينما كان المسلمون ينظرون إلى القرآن ويتلون آياته الكريمة كانت بصائرهم متفتِّحة وقلوبهم متدبرة لما تحويه، وحينما كانوا يصلون إلى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[٢]، كانت تتفجر كلّ كوامن طاقاتهم، وكانت هذه الآية ومثيلاتها باعثاً على تحويلهم إلى كتل من النشاط والحيوية.

١- سورة المائدة، الآية ٦٩.

٢- سورة الزلزلة، الآية ٧-٨.

روي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ليعلِّمه القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ **فقال: يكفيني هذا، وانصرف. فقال رسول الله** ﷺ: «**انْصَرَفَ الرَّجُلُ وَ هُوَ فَقِيهٌ**»[1].

فمثل هذه الآية الشريفة كان يبعث الذين اتبعوا الرسول على استغلال كلِّ لحظة من لحظات حياتهم للعمل والحيوية، فكانت حركاتهم نضالاً مقدساً، ولم تكن بأي شكل من الأشكال تعني السكوت والجمود واللهو.

إن المسلمين في الصدر الأول للإسلام كانوا يطبقون إلى حدٍ كبيرٍ الآيات القرآنية، والذي دعاهم إلى ذلك إحساسهم العميق وشعورهم الصادق وإيمانهم الحق بأهمية العمل الصالح، وكانوا على اعتقادٍ راسخٍ بأنَّ هناك يوماً آخر لايحكم فيه سوى ميزان العمل. ولقد قرؤوا حِكَم القرآن الكريم القائلة: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾[2]، فهم تحيط بهم خطيئاتهم. أي أن من كان في كتابه عملٌ صالحٌ وسيءٌ، ورجحت كفة العمل السيّء - كان كمن لم يكن له عمل صالح، حيث تلم به خطوب الخطايا من كلّ حدبٍ وصوبٍ.

إنّ هذه البصيرة وهذا الوعي كانا يدفعان بالمؤمن آنذاك إلى الإستزادة

١- بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٠٧، ح٢، نقلا عن: اسرار الصلاة للشهيد الثاني.

٢- سورة المؤمنون، الآية ١٠٣.

من أعماله الصالحة، وهو كان على يقين من أمره بأنّ كلمةً مقدسةً واحدةً ينطقها من شأنها أن ترفع من منزلته يوم القيامة وتنقذه في أحرج المواقف.

وما أوسع رحمة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل للمؤمنين سبلاً لا تُحصى لممارسة عمل الخير والصلاح، ويسَّرَ لهم أسباب الإيمان والعمل الصالح في أنفسهم.

وفي الطرف المقابل هناك الأعمال السيئة ونتائجها التي يمكن أن تلحق بالإنسان الغافل عن مصيره. ولا ننسى المثل العربي المعروف: "**القشة التي قصمت ظهر البعير**" فقد تكون هناك سيئة واحدة من شأنها أن تغير من حركة الميزان باتجاه تعاستنا الأبدية. ومن هنا لا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نستهين بالعمل الصالح فنتركه، أو نستهين بالعمل السيّء فنرتكبه رجاء مغفرة الله سبحانه، فالمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء.

نعم، إنّ الله عزّ وجلّ أرحم الراحمين، لكن لا يعني ذلك أنّه يغفر للإنسان دون أن تكون في صحيفته أعمال صالحة، فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[١].

فالعمل الصالح يحوِّل السيئات إلى حسنات، لا أنَّ السيئات تتحول بذاتها حسنات.

١- سورة هود، الآية ١١٤.

لقد أصبحت القبائل الجاهلة أمة ذات حضارة رفيعة بفعل ما كان يبعث فيها الرسول الأكرم ﷺ مثل هذه العقيدة الصالحة. فكان ﷺ يتقدم المؤمنين من أصحابه في ساحات الحروب بنفس الدرجة التي كان يحثهم على التقدم في القتال ومواجهة الأعداء، كان يتقدمهم في ممارسة العمل الصالح وتهذيب الذات وخدمة الناس بنفس الدرجة التي كان يحثهم على كل ذلك.

والآيات القرآنية الكريمة أكدت في غير موقع بأنّ نفس رسول الله ﷺ تواقة إلى أن تكون الأنموذج الأعلى في ممارسة ما هو خير وصلاح.

ومن هذه الآيات: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

أي أنك أيها الرسول قد سبقت المؤمنين في الاستعداد الميداني لقتال أعداء الله، والقيام بمهام التخطيط والإستعداد له قبل الجيش الإسلامي، وهذا بطبيعته يمثل القمة في الإيثار والجرأة والشجاعة، حيث يعمد القائد إلى تنفيذ مثل هذه المهمة. ولقد صور لنا أمير المؤمنين عليه السلام شخصية الرسول ﷺ وشجاعته في القتال بقوله: «**كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْه**»[2].

١- سورة آل عمران، الآية ١٢١.

٢- نهج البلاغة، من غريب كلامه، ٩.

الرجل الأول في التاريخ

كان النّبي الأعظم ﷺ – وهو الإنسان الأول في التاريخ – يسارع إلى عمل الخيرات مبادراً إلى ممارسة كلّ ما من شأنه أن ينعكس بالإيجاب على نفسية أصحابه وتربيتهم. وحينما قرر بناء أول مسجد للمسلمين في المدينة المنورة أمر المسلمين بأن يأتوا ويضعوا حجر البناء، وكان النّبي ﷺ (وهو القائد) يعمل معهم، فأقبل يحمل حجرا على بطنه، فاستقبله أسيَد بن حضير فقال: يا رسول الله أعطني أحمله عنك، قال: «**لَا، إذْهَبْ فَاحْمِلْ غَيْرَه**»[1]. مؤكداً – بعمله هذا – أنَّ القائد لا بد له من القيام بالعمل الشاق مع أصحابه ليكون قدوةً لهم. فياترى ماذا كان بوسع الرعية الصالحة أن تتخذ من مواقف إزاء هذا الإيثار وهذه التضحية النّبوية غير الإقتداء والإلتزام؟!

٣- الإستقامة ثم الإستقامة

وأما الركيزة الثالثة التي اعتمدها الرسول المصطفى محمد ﷺ في بعث المسلمين على أن يكونوا أمة صالحة فهي: تمسكه بمبدأ الصبر والإستقامة وحثهم على الإلتزام به. وقد جعل النّبي ﷺ من نفسه مثلا أعلى في هذا المضمار؛ حتى قال: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيت**»[2].

وقد صرح بهذا التصريح العظيم وهو الذي قال عنه الله تعالى: ﴿وَمَا

١- بحار الأنوار، ج١٩، ص١١٢.
٢- بحار الأنوار، ج ٣٩، ص٥٦.

يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ۝إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[١].

ولمزيد من التبصر بهذا الحديث النّبوي الشريف لا بد لنا من قراءة تأريخ الرسل والأنبياء عليهم السلام وما تعرضوا له من أذى وتعذيب وتنكيل لا يليق بأي حالٍ من الأحوال بشخصياتهم ومقاماتهم الرفيعة، لكي نتعرف على عظمة الرسول وموقعه عند ربّه عزّ وجل، أوَ ليس الأجر على قدر المشقة؟! وفوق ما كان يتعرض له صلى الله عليه وآله من أذى جسديٍ ونفسيٍ كان يؤمر بالصبر والإستقامة من قبل الله تعالى حتى قال يوماً: «**شَيَّبَتْنِي [سورة هُود» فقيل له في ذلك، فقال: «قوله:** ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾»[٢].

وتحدثنا السيرة النّبوية الشريفة أن الرسول صلى الله عليه وآله حينما استشهد العشرات من أصحابه البررة ومن بينهم حمزة سيد الشهداء عليه السلام، وفرّ قسمٌ كبير أثناء وبعد انتصار المشركين في معركة أحد، وأصابته ومن تبقى معه وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام بالبليغ من الجراح؛ بعد كلِّ ذلك عاد صلى الله عليه وآله إلى المدينة - والمسافة من أحد قريبة - ليتلقى أوامر جديدة من رب العالمين.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[٣]، قال:

١- سورة النجم، الآية ٣-٤.

٢- شرح نهج البلاغة [ابن ابي الحديد]، ج١١، ص٢١٣.

٣- سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

نزلت هذه الآية في نعيم بن مسعود الأشجعي، وذلك أن رسول الله ﷺ رجع من غزاة أحد وقد قُتل عمه حمزة وقُتل من المسلمين من قُتل، وجُرح من جُرح، وانهزم من انهزم ولم ينله القتل والجرح، أوحى الله تعالى إلى رسول الله ﷺ أن اخرج في وقتك هذا لطلب قريش، ولا تخرج معك من أصحابك إلا من كانت به جراحة، فأعلمهم بذلك، فخرجوا معه على ما كان بهم من الجراح حتى نزلوا منزلا يقال له: حمراء الأسد، وكانت قريش قد جدت السير فرقا، فلما بلغهم خروج رسول الله ﷺ في طلبهم خافوا...[1].

وفي رواية أخرى: «**ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: ارجع يا محمد، فإن الله قد أرعب قريشا ومرُّوا لا يلوون على شيء، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنزل الله:** ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[2]»[3].

بهذه الآيات من الصبر والإستقامة والصمود تمكَّن النّبي ﷺ من خَلق الأمة التي كانت حتى وقت قريب من ذلك العهد ميداناً للتناحر والبغضاء

١- بحار الأنوار، ج٢٠، ص١١١.
٢- سورة آل عمران، الآية ١٧٣.
٣- بحار الأنوار، ج٢٠، ص٦٤.

والهزيمة والخنوع.

دورة التاريخ

والآن عاد علينا التاريخ الجاهلي بدورته أو أعدناه نحن على أنفسنا. هذا هو التاريخ المخزي حيث تداعت وتتداعى علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة. كنا قبل الإسلام وصرنا الآن أيضاً مجرد مواد خام وإمكانات وأسواق وساحات لاستعراض السيطرة الأجنبية، نتوجه حيث يريد لنا أعداؤنا.

حلَّ بنا كلُّ ذلك بعد أن تركنا نهج الرسول ﷺ وما رسمه لنا من برنامج حياة حرة. واذ تُحرَّر هذه السطور فإنه يسقط طفلان من الجوع كلّ دقيقة في العراق (تحت سلطة الطاغية صدام وضغوط أسياده الامريكان) جراء الحصار المفروض على الشعب دون حكومته الظالمة، وفي البوسنة هناك مئات الآلاف من القتلى وعشرات الآلاف من النساء ذهبن ضحيات الإعتداء والإغتصاب، وفي جمهورية الشيشان يتعرض الناس إلى أبشع أنواع التصفية العرقية، بل وحتى في أفغانستان حيث يتناحر الأخوة المسلمون الذين كانوا حتى الأمس القريب يقاتلون الإحتلال السوفياتي في خندق واحد، هذا فضلاً عما يتعرض له اللبنانيون المسلمون المحرومون لأطنان القذائف اليهودية ضمن محاولات إبادة الشعب الفلسطيني على

طريقة الإبادة القومية التي تعرض لها الهنود الحمر في أميركا حيث أصبحوا جزءًا من مخلفات التاريخ الميت.

هذه صورة مبسطة من واقعنا المعاش في ظل السيطرة الأجنبية علينا بعد أن تركنا التمسك بالنهج الإلهي الذي أبلغه الرسول ﷺ وأوصله إلينا بكلِّ أمانة وإيثار.

العودة إلى الجذور

أُقول: إنّنا اليوم بأَمَسِّ الحاجة إلى العودة إلى النهج النّبويّ الذي عمل على تنبيه الناس، بأنه لا مفر دون إسقاط حجب الشرك عن أعينهم، وإزاحة هذه الغشاوة الشيطانية المتمثلة في إرتكاب السيئات.

إنَّ المفترض بنا أن ندرك بأنَّ كلّ لحظة من لحظات عمرنا محسوبة علينا في كتاب الله الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها. فالمسلم النزيه ليس لديه ثمة وقت يضيعه في مجالس اللّهو والبطالة مثلاً، بل المطلوب منه أن يعطي وقته درجةً عالية من الأهمية. إنَّ المسلمين على عهد رسول الله ﷺ كانوا كما هي خلية النحل؛ فمن الإيمان بالله الواحد الأحد، إلى ممارسة العمل الصالح الذي يبدأ بقتال المشركين، ويمر بتربية النفس وتهذيبها، لينتهي بتحصيل العلم وفتح آفاق الحياة، ليضمنوا بكُلِّ ذلك الحياة الأبدية والنعيم الدائم ورضوان الله الأكبر.

٢

مبعث الهدى

لقد انبعث النور الإلهي من جبل النور (غار حراء) في مثل يوم السابع والعشرين من شهر رجب الأصب، وبدأت صفحة مشرقة وجديدة من تاريخ البشرية.. وأنّى كان عمر البشرية على وجه هذا الكوكب الأرضي.. هل بلغ الأف السنين؟! أم عشرات الألوف من السنين؟! أم الملايين من الأعوام؟، ومهما كانت الإجابة، تبقى الحقيقة التي أجمع عليها المؤرخون واحدة، وهي أنّ هناك فصلين شهدتهما حياة البشرية؛ الفصل الأول وهو الذي سبق إنبعاث الرسالة المحمدية الشريفة، والفصل الآخر هو الذي جاء عقب هذا الحدث العظيم.

ففي الفصل الأول لاحظت البشرية بعض التقدم والإزدهار والتحول الحضاري في بعض الواحات الخضراء، ولكن في الأغلب الأعم رافق ذلك عهود مظلمة غطت حياه البشرية من شرقها إلى غربها. فلو ألقيت

ببصرك آنذاك على النصف الشرقي للكرة الأرضية، والذي كان يهيمن عليه الحكم الإمبراطوري الساساني الفارسي، والذي إمتد من بلاد الرافدين إلى أعماق السهل الصيني تقريبا، وكذلك الحكم الروماني البزنطي والذي إمتد من بلاد الشام إلى عمق القارة الأوروبية، لرأيت ما رأيت من صور العذاب والمحنة التي شهدتها البشرية.

أما لو ألقيت بنظرك على شبه الجزيرة العربية بمساحتها الشاسعة والمترامية الأطراف، فلن تجد إلّا ظلاماً دامساً، وظلماً كبيراً، وتخلفاً واسعاً، وفوضى على كافة الأصعدة والمجالات الحياتية.. بل لم يذق العربي آنذاك طعم القانون والحرية والهناء إلّا ببزوغ نور الإسلام الذي سطع على وجه الجزيرة العربية.

حضارة أم فرعونية؟!

لقد حاول - ولا زال يحاول - بعض الكُتّاب الغربيين وأصحاب الفكر الإلحادي المادي أن ينفخوا في رماد الحضارات البالية كالحضارة الفرعونية - إن صحّ إطلاق كلمة الحضارة عليها - متشبثين ببعض نقاط التقدم البسيطة التي رافقت حياة تلك الحقبة التاريخية، متناسين فداحة الظلم وقساوة التعسف الذي قوّم أعمدة تلك الصروح الفاسدة على أساس إذلال بني البشر والنّيل من كرامته المقدسة.

إنّهم يشيرون إلى عملية تحنيط الأموات وبناء معبد الشمس (أبي الهول) والأهرامات الثلاثة والقصور المنيعة التي حَوَتْ مقابر الفراعنة.. على أنها آثار حضارية تستدعي التجليل والإعتزاز من قبل بني البشر، وقد تناسوا أنّ هذه الأهرامات ما بنيت إلاّ على أكوام من العظام والجماجم البشرية. لقد كان الفراعنة وأزلامهم يقتادون المزارعين قسراً ليبنوا مقابرهم التي أخذت بعد حين تناطح في علوها السماء، ولكن على حساب دفن عشرات الآلاف من البشر المعذبين تحت صخورها!

أيّ حضارة تلك التي يموت فيها الآلاف من البشر حتى تحيي مجرد ذكرى الفراعنة في قبورهم؟ ثم أيّ تطورٍ علميٍ حازه الفراعنة آنذاك عندما ابتكروا لأول مرة عملية تحنيط الأموات؟! لقد كانوا يأتون بالمحرومين والمزارعين ويسترقونهم ثم يجوعوهم لكي ينقلوا تلك الصخور، فقد كانوا يسوقون المئات لمجرد تحريك صخرةٍ واحدةٍ من مكانها، وعندما كان يسقط هذا الإنسان العبد ميتا كانوا ينزلون على جثته لكي يمتصوا دمه ويجمعون لحمه لكي يستفيدوا منهما في عملية التحنيط؟!

كسروية وقيصرية

أما الدولة الساسانية المجوسية فهي الأخرى كانت تحكمها الطبقات الغنية وقوى العسكر والجيش، بل كانت المرأة هي السلعة المشاعة بين

الجميع لكي يتلذذوا منها أنّى شاؤوا!

أما الدولة الرومانية المسيحية القيصرية التي ورثت رسالة عيسى عليه السلام فقد طالتها يد الفساد كما طالت يد التحريف كلمات الإنجيل المقدس، وما بقيت من ركائزها إلاّ الهيكل الشكلي لقداسةٍ مزورةٍ وكاذبةٍ للحكم المسيحي والذي لا يهمه سوى الهيمنة والسلطة تحت ذريعة حكومة الله والمسيح!

يروي لنا التاريخ أنّ الرومان عندما دخلوا في معارك عديدةٍ مع المسلمين، إجتمعت قيادتهم العسكرية في إحدى الليالي وفي خيمة القائد، وتحدثوا عن قوة المسلمين ومدى إستبسالهم رغم صعوبة الطرق ووعورة الجبال والوديان التي لم يألفوها وهم تربوا وترعرعوا بالأمس في أراضٍ قاحلة وجرداء، وكان حارس الخيمة يستمع إلى حديثهم عند باب الخيمة، فمد رأسه إلى داخل الخيمة عندما سمع الأصوات إرتفعت ودار الجدال بقوة حول الأمر، وقال: أتأذنون لي أن أتفوه بكلمةٍ حول سبب تقدم المسلمين في مقابل تقهقرنا؟.. ولكنهم أخذوا ينهرونه وقالوا له: أسكت، كيف تتدخل في شؤون القيادة. فسكت الرجل، ثم عاد النقاش ثانية حول الأمر، فأدخل رأسه ثانية إلى الخيمة وطلب منهم الحديث، فرفضوا ذلك ونهروه ثانيةً.. ثم عاود في التدخل في الأمر ثالثة ورابعة، ثم ألَحَّ عليهم، ففسحوا له لكي يتكلم، فقال: إنّ الجواب على استفساركم لدي. قالوا:

وكيف؟! قال: الدليل على ذلك هو حالي وحال أمثالي، فقالوا: وضّح ما تقصد؟ فقال: أنا كنت بالأمس في تلك القرية النائية، وكنت أسكن مع زوجتي وأطفالي وأكدح في مزرعتي وبيتي وكنت أملك عدداً من الأبقار والشياة، إلى أن جاء جيشكم فصادر جميع أموالي وأرضي وقتلوا أحد أطفالي ثم أتوا بي عنوة إلى هنا لكي أعمل حارساً. فأقول وأتساءل: كيف أستميت وأستبسل من أجلكم وأنا شاهدت ما شاهدت من ظلم ومفاسد؟ وكيف يمكن لجنودكم وهم يحملون راية الظلم والجور أن يواجهوا ويُقاتلوا من يحمل لواء العدل إلى العالم؟!

وقبل ذلك شهدت بلاد الرومان فتوحات الإسكندر المقدوني الذي جاء من الغرب لكي يكتسح الشرق بجيشه، وفعل ما فعل ضد الفقراء والمظلومين لكي يبني أمجاداً زائفة له ولمن يأتي من بعده.

ظلام ونور

لقد جاء الإسلام إلى الأمم والشعوب لكي يعيدها إلى حضيرة المبادىء والقيم السماوية الطاهرة، ويخرجها من أغلالها وإصرها التي كانت عليها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

لقد اجتاحت الفوضى والحروب الضروس الطاحنة بين القبائل

١ - سورة الجمعة، الآية ٢.

العربية، وراج سوق الشعوذة والخرافات.. لقد حكمت وتحكمت العصبية القبلية المقيتة بروح وكيان كلِّ من سكن بادية الجزيرة العربية والتي لم تر في تاريخها أي مدنيّة أو حضارة تُذكر، بل لم يقترب إليها فاتحوا البلاد الأخرى لتخلفها المفرط وفقر باديتها القاحلة التي لا تنبت فيها سوى الزرع القليل لملوحة الأرض وفقدان الماء الكافي.

لقد صنعت هذه الصحراء الغبراء رجل الجزيرة العربية انساناً شديداً، وفضاً غليظاً، تتآكله الأمية والجهل والخرافة والفوضى.. وشاءت القدرة الربّانية أن يأتي رجل من بطن الجزيرة العربية ويُنزل على أبنائها نور العدل والعطف والمحبة والتعاون والتآلف.. فصنع هذا الرسول العظيم ﷺ من هذه الأمة المتخلفة بالأمس أمة تطوي الفيافي بهمتها العالية وروحها الوثابة، وتنشر الخير والفضيلة في كلّ مكان كما اعترف أكثر المؤرخين والمفكرين الغربيين بذلك.

لقد تحكمت هذه الأمة على الديانة اليهودية بعد أن مستها يد التحريف وروح العصبية العنصرية، فاقتصرت على قوم بني إسرائيل عبر سلالة ضيقة لا يحق أن ينظم إليها الآخرون، لأنَّ الأمم والشعوب الأخرى ليست من "شعب الله المختار"! أما الديانة المسيحية فأصبحت هي الأخرى ألعوبة بيد الحكام ووعاظ السلاطين بعد أن شمَّروا ساعد

التلاعب والتجاسر على كلمات الله المقدسة وحرفوها حسب ما تشتهي أهواؤهم.

إنَّ تسليط الضوء على بعض المفاسد والجرائم التي يرتكبها الإنسان اليوم تحت يافطة الدين في بعض الدول والشعوب الأخرى كالهند والصين وأفريقيا - مثلاً - يتلمس جيداً عظمة شخصية الرسول ﷺ وبركة البعثة النبوية الشريفة على الأمم التي تفيّأت تحت ظل مبادىء الإسلام وتعاليمه السمحة.

فقد سمعت قبل فترة خبراً مذهلا ولا أكاد أن أصدقه! هو أنّه، وخلال سنة واحدة تم إعدام ثلاثة ملايين بنت لمجرد أنها بنت! في الهند، مع العلم أن الزواج في الهند يتم عبر تقديم المهر والصداق من قبل الزوجة إلى الزوج؟!

كما أن هناك عادة لازالت رائجة لدى بعض الطوائف في هذا البلد، وهي قتل الزوجة فيما إذا مات زوجها، كما تقر بعض قوانين الديانات الهندية! وتتم عملية الإعدام إما عبر دفن الزوجة مع الزوج الميت أو عبر حرقها، ويقول صحفي ذهب لمقابلة والد وأم الزوجة التي توفي زوجها، سألهم عن انطباعهم، فقالوا: نحن راضون لأنَّ الله يريد هكذا؟! أمّا في الصين وأفريقيا فهناك أمور عجيبة ومذهلة أخرى!

مقاومة زيف الطغاة

لقد نعمت البشرية ببركة إنبلاج نور الإسلام وانتشار مناهج الرسالة الإسلامية بين كثير من بلدان العالم آنذاك بما لم تنعم باقي الأمم والشعوب الأخرى، وهذا لا يعني بالتأكيد أنَّ كافة الحكومات والدول التي رفعت راية الإسلام وادَّعت تسربلها بلباس الإسلام كانت إسلامية في واقعها وجوهرها. فهناك جملة من الدول والحكومات كحكومة بني أمية وبني العباس وغيرهما حكمت باسم الإسلام رغم أنَّ واقعها لم يكن كذلك، وذلك لمعرفتها بأن الشعوب التي تخضع لسطوتها لا ولن ترضى غير الإسلام دينا، فلذا لم تجرأ على محاربة إسم ورسم وطقوس الإسلام، بل انبرت لتحريف بعض مفاهيم الإسلام وإشاعة بعض التفاسير الخاصة للقرآن الكريم حسب ما تشتهي مصالحها الدنيوية، كما تفعل جملة من الدول الإسلامية في الوقت الحاضر.

وهنا يأتي دور أئمة الهدى عليهم السلام وسيرتهم المباركة في مقدمة مواجهة صور التحريف المغرضة هذه لتفهيم الأمة بحقيقة مبادئها، ولذا كانوا عليهم السلام بمثابة (القرآن الناطق)، بل إنّ ظهور وبعثة هكذا رسالة ربّانية عظيمة على يد سيدنا الرسول الاعظم ﷺ وبهذه المفاهيم والتعاليم المنقذة والنبيلة، تستدعي بطبيعة الحال كما هو ديدن الطغاة عبر التاريخ، المواجهة من قبل الظلمة والفاسدين والسعي الحثيث على أن لا تقف تعاليم هذا

الدين المبارك بوجه مطامعهم وأهوائهم الشيطانية.

ولكن بفضل نور الولاية الطاهرة ودور الأئمة الإثنى عشر المعصومين من آل بيت محمد ﷺ تم إحباط كافة صور التزوير والتحريف المتعمد الذي إنبرى أعداء الإسلام والمستكبرون للنيل من مبادىء الإسلام وتوجيهها وفق مصالحهم الدنيوية، فكانت سيرتهم ومواقفهم العملية عليهم السلام خير دليل لكل من يتلمس الحقيقة الناصعة. وبهذا تم حفظ مبادىء الإسلام وجوهر الدين في وقت قد ورثت البشرية المبادىء المحرفة لتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام في التوراة والانجيل!

واليوم لو القينا نظرة إلى خارطة العالم الإسلامي لوجدنا أن صحوة رسالية وبعثة محمدية جديدة أخذت تتسع لتشمل كافة قطاعات ومرافق حياة المسلمين تدريجياً، بل أخذ المسلمون يستعيدون مواقعهم الطبيعية بين الأمم ويرسمون خريطة العودة إلى بناء صرح حضارتهم الإسلامية، التي شيّدها الرعيل الأول من المسلمين، كما شيّدت حكومة الرسول الاكرم ﷺ في المدينة المنورة وكذلك حكومة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام والتي إمتدت طيلة أربع سنوات، وحتى حكومة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام والتي لم تدم سوى ستة أشهر، أو حكومة الشهيد مسلم بن عقيل في الكوفة والتي استمرت عدة سويعات!

من وحي البعثة

وفي مناسبة البعثة النبوية المباركة لابد أن نقف عند بعض النقاط الأساسية في حياتنا:

١- لا بد من قراءة ودراسة الرسالة النبوية الشريفة وحياة الرسول الاكرم ﷺ وسيرته ومشروعه الدعوي للأمة دراسة عميقة. فلا تقتصر دراستنا على مجرد شذرات من ولادة الرسول ﷺ ويوم بعثته ويوم وفاته، بل لا بد أن تتسع دائرة دراستنا كافة الأبعاد السلوكية والأخلاقية والفكرية في كافة مراحل دعوته المباركة، بل تستمر دراستنا أيضا لاستخلاص أهم الدروس من سيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام باعتبارهم المكمِّلين لدور التوجيه الرسالي والقيادة الربانية للأمة.

فنحن قلّما نجد خطباءنا وكتّابنا وإعلاميّنا يسلطون الضوء الكاشف والكافي على سيرة الرسول الاكرم ﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام ليستخلصوا منها الدروس المفيدة لواقع الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية للأمة.

٢- لقد بُعِث الرسول الاكرم ﷺ وصدع بدعوته المباركة لا لكي يغيِّر ويصلح بعض الظواهر والأشكال والقشور، فلم تكن حركة الرسول ﷺ حركة إصلاحية ترميمية، بل كان دوره ﷺ دور البناء والمعمار الذي يبني البناء من الأساس ثم يرتقي لبناء الطوابق الأخرى.. أنه ﷺ لم يهادن ولم

يداهن الأعداء على حساب الدين وتعاليمه، فلذا لم يرض بأنصاف الحلول كما يفعل البعض، فقد عرض بعض المشركين عليه ﷺ أن يجمعوا في عبادتهم بين عبادة الأصنام والصلاة، فرفض ﷺ أن يرقِّع في الدين وقيمه.

لقد أعاد الرسول الأكرم ﷺ صياغه الإنسان من جديد، لقد غيّر ﷺ ثقافته من الثقافة الجاهلية المقيتة إلى ثقافة ربّانية رحبة، فصنع رجالاً كأبي ذر الغفاري الذي كان هو وقبيلته من قطاع الطرق فتحَوَّل إلى أصدق إنسان، حتى قال ﷺ في حقه: «**مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلاَ أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَر**»[1]، وكسلمان الفارسي الذي قال فيه: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْت**»[2]، وكذلك عمار بن ياسر والمقداد وغيرهما ممن كانوا كزبر الحديد.

إنّه ﷺ إستهدف إيجاد تغييرات جذرية شاملة في الأمة وفي مختلف الأبعاد، فلذا لم يترك الأمة في غياهب الأمور ومجاهيل القضايا، بل أعطى رؤى لمناهج التحرك العملي على كافة الأصعدة والمجالات الحياتية، هذا ناهيك عن دعوة الأمة لمعرفة أئمة زمانهم وقادتهم الميدانيين بعد وفاته وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام.

١- بحار الأنوار، ج٢٢،ص٤١٧.
٢- عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٦٤.

٣- لقد صاغ النبي ﷺ شخصية الإنسان المسلم على قاعدة الإيمان بالله، عبر تقوية وتعزيز العلاقة بين العبد والمولى، بين الضعيف ومنتهى القدرة، بين الذليل والعزة اللامتناهية.

نحن لو لاحظنا ناطحات السحاب الشاهقة في بعض بلاد الغرب لرأينا أنّها بنيت على أساس من (الصخور) أو (الرصاص) أو أيّة قاعدة أخرى بشرط أن تكون صلبة وقوية جداً بأمكانها أن تحمل قوة وثقل (١٣٠ أو ١٤٠) طابقا على مدى عشرات السنين، فكذلك الإنسان إذا تمكن أن يربط قلبه المليء بدواعي الهوى والشك بمقام العزة الإلهية، فلا يمكن زعزعة كيان هذا الإنسان المؤمن أو تحريفه، وهذا الأمر انتهجه الرسول الأكرم ﷺ في سيرته لبناء أصحابه وحوارييه ﷺ.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنَّه قال:

«اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيَّ،

فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ؟

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مُؤْمِنٌ حَقّاً؟

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ؟

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرَتْ

لَيْلِي، وأَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي قَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ، وكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ.

فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَبَعَثَهُ فِيهَا، فَقَاتَلَ فَقَتَلَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً ثُمَّ قُتِلَ»[1].

لقد دعا لحارثة أفضل دعاء، حيث كان صحابياً جليلاً وذكياً، وقد عرف كيف يستشعر خوف الله وحبه في قلبه، وكيف ينتخب ويختار الطريق القويم والسليم المؤدي إليه جلّ وعلا، وأن يرغب في أن تكون حياته كلّها في جنب الله، فلا يهمه أن تستمر أيام حياته أم تقل، وإنّما المهم عنده هو أن تزداد معرفته في الله يوماً بعد آخر، ولذا إختار طريق الشهادة، ولأنه كان يفضِّل الطريق السهل والمضمون إلى الجنّة على أن يبقى في الدنيا مع إبتلاءاتها وفتنها العديدة.

وبالفعل إستجابَ الله لطلبه، لأنه كان يحظى بحب الله تعالى له.

١ - الكافي، ج٢، ص٥٤.

٣

رسل الله رمز التحدي

قبل أن نَدخل في رحاب القرآن الكريم، ونستوحي من آفاق معرفته الفيّاضة، لا بد أن نذكِّر القارئ الكريم بملاحظتين مهمتين:

الإرتفاع إلى مستوى التدبر

١ - إنّ على الإنسان المسلم أن لا يرى نفسه غير قادر على الإرتفاع إلى مستوى التدبر في كتاب الله، والاستفادة من آياته الكريمة، فهناك البعض وبسبب إحساسهم بالنقص والضعف، يظنون أنهم لم يصلوا بعد إلى مستوى القرآن الكريم، فإذا بهم لا ينفتحون على آياته الكريمة، ولا يحاولون إستيعاب آفاق المعرفة الإلهية، بل ولا يسمحون لأنفسهم بالتدبر في القرآن!

ومثل هذا الموقف هو موقفٌ عجيبٌ، فلولا أن القرآن من الممكن أن يُلهم الإنسان، ولولا أنَّ الله تعالى يعلم أنه من الممكن أن يرتفع الإنسان

إلى مستوى فهم القرآن الكريم، لما بعث الرسول بهذا الكتاب، ولما جعله هدى للناس، ولما أرسل رسوله للناس كافة، بل كان يُخصّص القرآن لطائفة معيَّنة من الناس دون غيرها.

وعلى هذا فإنَّ الخالق تعالى شأنه يسّر القرآن للذكر:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[١].

فكلّ إنسان بلغ مبلغ الوعي والإدراك هو مهيّأ نفسياً وذهنياً لمعرفة آيات القرآن، والتدبر فيها، واستيعاب معانيها، وفي الحقيقة فإنّ إيحاء الإنسان إلى نفسه أنه لا يستطيع فهم القرآن الكريم إنّما هو من وساوس الشيطان، فالشيطان الرجيم يأتي إلى إلانسان المسلم، ويوسوس في صدره قائلا: أين أنت من القرآن؟ إنّ القرآن هو كتاب الله العظيم ولا يستطيع أن يفهم هذا الكتاب إلّا أهله! فاغلق منافذ قلبك دون القرآن إذن، لأنّك عاجز عن فهمه!!

وهكذا يجب على الإنسان المسلم أن لايستصغر نفسه، ولا يستحقرها، فالله سبحانه وتعالى أودع فيه هذا العقل العظيم القادر على استيعاب الحقائق، فلماذا نحرم أنفسنا من نعمة منحها الله إيانا؟ إنَّ مثل هذا العمل لا يخدم إلّا مصالح الشيطان، لأنه يريد أن يغوينا من خلال الحيلولة دون دخول النور القرآني إلى قلوبنا. فإذا ما أظلمَّ القلب، سيطر الشيطان،

١- سورة القمر، الآية ١٧.

واستحوذت علينا وساوسه وتبريراته وبالتالي همزاته ولمزاته، وبذلك يُنحِّي الإنسان عن الصراط المستقيم.

إنعكاسات القرآن في القلوب

٢- الحقيقة الثانية التي أريد أن أثبتها كتذكرة هنا هي؛ أن القرآن الكريم يتجلى في قلوب الناس، ولكن هذه القلوب قد تكون شفافة نقية صافية تتلألأ كقلب النّبي ﷺ فتستقبل نور القرآن المتشعشع كما هو في مشكاة قلب الرسول ﷺ.

ومع ذلك فان قلب الإنسان المسلم الذي إنعكس عليه شيء من نور القرآن قد يكون متأثراً ببعض الأفكار المنحرفة التي دخلت هذا القلب، فتركت فيه آثاراً من الشرك الخفيّ، مما تجعل نور القرآن في قلبه خافتاً وفاقداً للتأثير المطلوب. وهذا هو السبب في إنحراف الديانات السابقة كالديانة المسيحية، فالمسيحيون قالوا إن الناس ليس بامكانهم الإيمان بالإنجيل وصفائه ووضوحه، وبالنور الإلهي الموجود فيه، فلنأخذ من ثقافات الآخرين كالثقافة اليونانية الوثنية، ولنمزج هذه الثقافة بالإنجيل، فكانت النتيجة أن أخذوا بفكرة الأقانيم الثلاثة؛ الأب (الله)، والإبن، وروح القدس.

وهذه السلوكيات الخاطئة هي نفس ما يقوم بها الآن البعض من

المثقفين الذين ذهبوا إلى البلدان الغربية فأخذوا يفسرون القرآن الكريم حسب ما تعلموه وتلقوه من افكار غربية وضعية.

رافد عذب ونبع صاف

إنّ علينا أن نستمد ثقافتنا من القرآن الكريم بشكل مباشر، وأن لا ننفصل عن هذا الكتاب العظيم، فحجتنا يوم القيامة ستكون قويّة عندما نأخذ علمنا وثقافتنا من هذا الرافد العذب، والنبع الصافي، فالقرآن الكريم يظل هو الأساس والمعيار حتى بالنسبة إلى أحاديث الأئمة عليهم السلام ولذلك يأتي التأكيد من قبل المعصومين عليهم السلام على المسلمين بأن يعرضوا الروايات والأحاديث على القرآن الكريم، فما وافق الكتاب فليأخذوا به، وما خالفه فليتركوه .

شبهات الكفار تجاه الرسل

وفي سورة الفرقان - التي تحمل إسماً من أسماء القرآن الكريم، وتعني الكلمة أنّ القرآن يفرق بين الحق والباطل - هناك بعض الآيات التي يطرح فيها الله سبحانه تساؤلات بل شبهات الكفار تجاه الرسل، وهي كالتالي:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا۞أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ

مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا۞ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا۞تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا۞بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا۞إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا۞وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا۞لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا۞قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾[١].

شبهات تافهة

إن الله تعالى يستعرض لنا في الآيات السابقة الشبهات التافهة التي أثارها المشركون والكفار تجاه الرسالات الإلهية متمثلة في الأنبياء والرسل؛ فكيف يمكن أن يمشي الرسول في الأسواق ويأكل الطعام، فهو إذن إنسان عاجز ضعيف لا يتفوق علينا، فهو يجوع، ونحن نجوع أيضا، وعندما يحل وقت الطعام يجلس على المائدة كما نجلس نحن، ومن الناحية الإقتصادية فإنّه هو الآخر يحتاج إلى الأموال كما نحتاج نحن إليها، وهو محتاج إلى أن يعمل، ويمارس التجارة في الأسواق لكي يؤمِّن رزقه. فلماذا يعمل، ولماذا لا تنزل عليه من السماء الأموال، والذهب، والفضة لكي يستغني بها عن مزاولة الأعمال؟

١- سورة الفرقان، الآيات ٧-١٥.

ولذلك فإن الكفار كانوا يطالبون أن ينزل مع الرسول ملك فيكون معه نذيراً، وبعبارة أخرى فإنّهم كانوا يريدون أن يؤمنوا بالرسالات من خلال إمتلاكها لأسباب القوة المادية والظاهرية وخضوعهم لهذه القوة، في حين أن سنة الله تعالى إقتضت أن يؤمن البشر بالرسالات الإلهية من خلال الإقتناع بها، ومن خلال الوصول إلى مستوى من النضج يؤهلهم لأنْ يصبحوا مؤمنين حقيقيين.

لقد كان بإستطاعة الخالق عزّ وجلّ أن يخلق أناساً يعبدونه كما تعبده الملائكة، ولكنه أكرم الإنسان بالإرادة، لكي يعبده هذا الإنسان بإرادته وحريّته واختياره.

وهناك - بالإضافة إلى ذلك - الظالمون الذين كانوا يقولون كلاما أخطر من ذلك يرويه تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾[1].

فهؤلاء الظالمون إتّهموا الأنبياء بأنهم مسحورون، وهي أسوأ تهمة يتهم بها الإنسان، والقرآن الكريم يؤكِّد أن هؤلاء الظلمة ماهم إلاّ مجموعة من الضالين: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2].

١- سورة الفرقان، الآية ٨.

٢- سورة الفرقان، الآية ٩.

فهم يقولون إن الرسول مسحور (أي مجنون)، ولم يفكروا في أن الإنسان المجنون لا يمكن أن يكون حكيما، ولا يستطيع أن يدير دولة أو يقود جيشا وأمة، ويؤسس حضارة، وأي مجنون ذلك الذي يستطيع القيام بكلّ هذه الأعمال؟!

ولكن القرآن الكريم يكلهم إلى أنفسهم، وبتعبير آخر يرد تهمة الجنون إلى أنفسهم لأنهم لا يعون ما يقولونه، وما ينشرونه من ضلالات وأباطيل.

الدنيا ليست نهاية المطاف

ثم يستأنف عزّ وجلّ قائلاً: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[١].

فالقرآن يرشد الإنسان إلى أنَّ هذه الدنيا ليست نهاية المطاف بل هي قنطرة للآخرة، ولذلك فإنّ الله تعالى لم يعط للأنبياء شيئاً كثيراً منها لأنها هيّنةٌ عنده، فلو كانت هذه الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما جعل للإنسان الكافر فيها من نصيب.

أما نحن فإنّ الدنيا تعتبر عندنا من القضايا المهمة في حين أنّها كلّها خداعٌ نخدع من خلاله أنفسنا، لأن الدنيا لا بد أن تنتهي بالموت، والإنسان لا يعرف متى سيرحل عنها، وكلّما جمع الإنسان من هذه الدنيا أكثر، فإنَّ حسرته عليها حين يفارقها ستكون أشدّ، وفي الآخرة سيكون

١- سورة الفرقان، الآية ١٠.

حسابه ووقوفه لهذا الحساب أطول.

إنّ الله تعالى ليس من صفاته أن يكرِّس القيم الزائفة، بل يريد أن يخرج الناس من ظلمات الدنيا إلى نور الآخرة، من قيم المادة الزائفة إلى القيم المعنوية الحقيقية، وإن أولئك الظالمين إنّما إهتموا بهذه الدنيا لأنّها مبلغ علمهم، ولأنهم يعتقدون أنّها نهاية المطاف كما يقول تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[١].

فلا تغمض عينيك أيها الإنسان لتقول ليست هناك آخرة، بل افتحهما لكي تراها، فالذي يغمض عينيه يتحمل ذنبين؛ ذنب ضلالته، وذنب الجريمة التي يرتكبها، فالإنسان الذي يغمض عينيه وهو يمشي ثم يقع في البئر فإنه يُذم ويُلام من قبل الناس مرتين؛ مرة لأنّه لم يلتفت الى الطريق بشكل جيد فسقط في البئر، ومرةً لأنّه أغمض عينيه وهو يسير في االطريق، وهكذا الحال بالنّسبة إلى الإنسان عندما يكذب بالساعة فإنّه سيعاني من مشكلتين؛ المشكلة الأولى تتمثل في الذنوب التي إرتكبها بسبب تكذيبه بالساعة، والمشكلة الأهم تتجلى في أصل تكذيبه بالساعة.

ومثل هذا الإنسان سيكون مصيره ناراً مستعرة مسجرة لغضب ربها: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا۝إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾[٢].

١- سورة الفرقان، الآية ١١.

٢- سورة الفرقان، الآيات ١١-١٢.

وأنا لا أدري بالضبط كم تبلغ هذه المسافة التي يصفها القرآن الكريم بأنّها بعيدة، إلّا أن الكافرين يسمعون لهذه النار التغيض والزفير، فإذا بالنيران تضرب بعضها بعضا، فكيف بهذا الإنسان الذي لا يستطيع أن يتحمل ضوء الشمس في الصيف، كيف يستطيع أن يتحمل ذلك السعير، وتلك النيران التي يقال أن الشمس نفسها ستُرمى فيها يوم القيامة فتضج من حرها!!

الى متى الغرور؟

إنّنا لانعرف متى سيحل أجل الواحد منّا، وهل سنبقى على قيد الحياة إلى ساعة بل ثانية أخرى، فإلى متى نبقى في الغرور، وإلى متى نبقى غير مؤدين بالشكل الصحيح لصلاتنا، وصيامنا؟ وحتى متى نستمر في سلوكياتنا الخاطئة، حتى يأتينا النداء للرحيل، فلا نستطيع أن نعيش ولو للحظات أخرى مهما ألححْنا على ذلك لنتوب ونرجع إلى الله تعالى؟ كما يبيّن ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[1].

ثم يستأنف عزّ وجل قائلا: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا۝لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[2].

وتصف الروايات هذا المكان الضيق بأنه كالحيز الذي يحدثه الوتد في

١- سورة الأنعام، الآية ٢٨.

٢- سورة الفرقان، الآيات ١٣-١٤.

الأرض أو الجدار، فمن الصعوبة بمكان أن يدخل الوتد في الجدار، وهكذا الحال بالنسبة إلى الإنسان في يوم القيامة فإنه يدخل في النار بعد أن يُضرب على رأسه كما يُضرب على المسمار عندما يُدق في الجدار. فقد روي عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُستَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ**»[1].

والكافرون الظلمة يُحشرون في نار جهنم (مقرَّنين) أي على شكل مجموعة ملتصقة ببعضها البعض ثم يُرمون في النار وهم على هذه الحالة.

ثم يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ هؤلاء الظلمة سوف يلعنون أنفسهم، فالإنسان عندما يقع في مصيبة كبيرة فإنّه يلعن نفسه خصوصاً إذا كان هو المتسبب في هذا المصير الذي آل إليه.

ويسخر تعالى من هؤلاء قائلا لهم: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدۡعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[2].

ترى لماذا لم تستغلوا الفرص التي سنحت لكم في الدنيا؟ لقد قرأتم القرآن، وسمعتم النصائح، ولكن كلّ واحدٍ منكم قال: إن هذا الكلام لا يعنيني، في حين أنكم كلّكم معنيون دون استثناء.

ويقول عزّ وجلّ مقارناً بين هذا المصير الذي إنتهى إليه أولئك المكذبون

١- بحار الأنوار / ج٨ / ص٢٥٥.

٢- سورة الفرقان، الآية ١٤.

بالرسالات قائلا:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۞ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾[١].

إنّ هذه المجموعة الكريمة من الآيات جاءت في مقام التأكيد على حقيقة أنّ الرسل هم على حق رغم ما تعرضوا له من تلك التهم الرخيصة، إلى درجة أنهم فقدوا الدنيا وما فيها من بهارج، ولكنهم - مع ذلك - كانوا على حق، وأعداؤهم على باطل، ذلك لأن هؤلاء الرسل والذين آمنوا بهم كسبوا الحياة الأساسية المتمثلة في الآخرة، في حين أنّ أعداءهم لم يكسبوا سوى الدنيا الزائلة على حساب فقدانهم للحياة الأخروية وما أعدّ فيها من نعيم.

الهدف الحقيقي من طلب العلم

إنّ هذه الحقيقة تعني أنّنا يجب أن نحصن أنفسنا أمام الإعلام المزيف، والدعايات المضللة، والأفكار السلبية، والتبريرات الواهية، فيجب على الواحد منا - مثلاً - أن لا يدرس العلم لكي يقول للناس إنني عالمٌ أو إنني خريج جامعي واحمل شهادة عليا، فما فائدة العلم الذي يملأ الإنسان غروراً، ويجعله لا يفكر إلا في أن يشغل المناصب المهمّة، بل علينا أن

١- سورة الفرقان، الآيات ١٥-١٦.

نتلقى العلم لكي ينفعنا في الآخرة، ولنخلص نياتنا ولنسع من أجل أن تكون النوايا طاهرةً زاكيةً.

إنّ هدف الإنسان من تعلم العلم هو أن ينفعه، وبالتالي أن يكون سببا لانتفاع الآخرين منه، لا أن يخزنه في قلبه، فإذا طلب منه أن يقوم بالخدمة في منطقةٍ ما فعليه أن لا يمانع، وللأسف فإن بعض المتعلمين عندما يطلب منهم أن يتوجهوا إلى منطقة ما للتبليغ أو للخدمة فإنهم يمتنعون عن ذلك مختلقين العشرات من التبريرات، ومن حقنا أن نسأل هؤلاء: لماذا درستم العلم أساساً؟ هل لكي تختلقوا مثل هذه التبريرات؟

إن مثل هذا الإنسان عليه أن يراجع نيته عندما بدأ بدراسة العلم؛ فهل كانت نيته خالصة أم كانت تخالطها بعض الشوائب الدنيوية، فإذا ما اكتشف أن نيته لم تكن خالصة فعليه أن يسعى منذ الآن من أجل أن يكون مخلصا، فالإنسان لا يمكن أن يخرج من هذه الدنيا من دون أن يتعرض للإمتحان، وهذا الإمتحان يتجلى بالنسبة إلى طالب العلم في أن يكون جندياً مخلصاً في سبيل الله تعالى ودعوته عن وعيٍ وايمان.

لماذا نستصغر أنفسنا؟

إن الواحد منّا لم يؤمن بالدين على أساس كلام الآخرين، بل نحن نمتلك الوعي والعقل، فلماذا – إذن – نحتقر أنفسنا، ونستصغرها، ولماذا

لا نكون جنودا مضحين في سبيل الله - عزّ وجلّ -، ومن أجل القيم والمبادئ التي نؤمن ونلتزم بها؟

إن التهم التي وُجهت إلى النبي ﷺ وسائر الرسل عليهم السلام إنّما هي دروس لنا، فمن يدعي أنّه داعية إلى الله تعالى فعليه أن يصمد أمام التهم والتيارات الضالة التي تحاول أن تمتص حالتنا الرسالية الإيمانية، وأن يواجهها بقوة واقتدار، لا لكي ينتصر، فالنصر ليس بأيدينا بل هو بيد الله جلّ وعلا، ولكن لأنّ الله أعد الجنّة لمن استقام، والنار لمن ضلّ وانهار.

طريق الرسالة شائك

إن الذي يستطيع أن يتسلق الجبل لا بد أن يصل إلى قمته، فيرى نتيجة عمله وهي الجنّة هناك، أما الذي يسقط في الطريق، ويهوي إلى الوادي، فإنّه - في الحقيقة - قد هوى في نار جهنم، ولذلك فإنّ علينا أن نستقيم لوجه الله تعالى لا من أجل المغانم الدنيوية، والأطماع الآنية، فلا أحد يعد الناس في هذا المجال أنهم سيحصلون على بيوت مجهزة، وسيارات فاخرة، إذا ما انضموا إلى المؤمنين الرساليين، كلا، فطريق الرسالة طريق التحدي والمواجهة والإستقامة والمحن.

ترى لماذا يتراجع البعض بمجرد أن تتراجع القضايا المادية في الحركات الرسالية التي ينتمون إليها؟ وهل يدل موقفهم هذا على خور عزائمهم،

وضعف إيمانهم، وعدم خلوص نياتهم منذ البدء؟

الجواب بالإيجاب بالتأكيد، فلنتركهم يبررون، فمثل هذه التبريرات لا يمكن أن تنفعهم يوم القيامة، بل على العكس من ذلك، فهذه المعاذير هي بحد ذاتها ذنوب يحاسبون عليها.

وعلى سبيل المثال فإن الإنسان الذي لا يصلي، ويدعي أنّ الصلاة غير واجبة فإنّ جريمته هذه مضاعفة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الذي ينسحب من الساحة ويثير حوله الغبار والدخان لكي يبرر إنسحابه، ويتهرب بذلك من عتاب ولوم الآخرين، فإن هذا التبرير هو بحد ذاته كذب، والكذب حرام، بل أنّ بعضه إفتراء على الله سبحانه وتعالى.

فلنحاول أن نُقبل على العمل الرسالي بقلوبٍ متفتحةٍ، ونياتٍ خالصةٍ، وأذهانٍ واعيةٍ، لكي نضمن إستمرارية هذا العمل رغم الصعاب والعقبات التي من المؤكد أنّنا سنواجهها في هذا الطريق الذي نستهدف من السير فيه مرضاة الخالق وجناته.

٤

الرسالة الإسلامية

مشروع البشرية جمعاء

لا يمكن لأيِّ مبدأ أو مشروع أو نظرية وضعية أن يقوى على الوقوف في موازاة الإسلام من حيث شمولية الإنسانية جمعاء، وتغطية حاجاتها في هذه الحياة الدنيا. فالإسلام هو المشروع الإنساني الوحيد الذي يتمتع بهذه الشمولية، ويستطيع أن يتحدى كلّ المبادئ والافكار والنظريات والقوانين التي ابتدعها الإنسان.

إنّ الإنسان في هذا الكون هو واحدٌ من ثلاثين مليون نوعٍ من الأحياء التي تدب على كوكبنا، وعندما يكون الحديث عنه من زاوية معينة نجد أنه ينقسم إلى تقسيمات عديدة حسب المعايير المادية، ولكننا عندما نحيط به وننظر إلى جوهره نجده ذلك الإنسان الواحد، ذا الفطرة الواحدة، والطبائع والمصالح المشتركة، والقوانين والسنن الإلهية الواحدة.

وعندما يصوغ هذا الإنسان فكرة، أو يخطط لمشروع، أو يضع منهجاً ما فإن فكرته، أو مشروعه، أو منهجه يتأثر بموقعه ومحيطه. فلو كان الإنسان يعيش في منطقةٍ حارةٍ – مثلاً – فإنّ مشروعه سيتأثر بهذه البيئة ومناخها، وإذا كان هذا الإنسان غنيّاً فإن منهجيته في التفكير ستتبلور متأثرة بالترف الذي يعيشه، فيكون مشروعه هذا منسجماً ومتلائماً مع ما يرومه المترفون، أما إذا كان فقيراً مُعدماً فإنّ مشروعه سترحب به الطبقة الكادحة الفقيرة، وهكذا...

المشروع الإسلامي منهاج عالمي

وعلى العكس من ذلك فإن المشروع الذي قدّمه الإسلام كان وما يزال يمثل منهاجاً عالمياً كونياً يتناسب مع كلِّ العصور والأزمنة منذ بعثة النّبي الأعظم ﷺ وحتى قيام الساعة. وهنا يكمن سر عظمة هذا الدين الإلهي، والرسالة الربّانية الخاتمة. وفي إطار هذا الشمول والإحاطة تبرز عظمة القرآن الكريم ومعجزته. فالإنسان مهما بلغ تَعمُّقه وتبحُّره، ومهما خاض في بحار الفلسفة التي تُبنى على أساسها الأفكار والمنهجيّات فإنّه يبقى ذلك الكائن المحدود في فكره، فلا بد أن تتعلق بتفكيره ومنهجيته التي يصوغها خيوط العاطفة مهما حاول قطعها، فيبقى بذلك محدوداً ومؤطراً بسائر المحدوديات والأطر، سواءً البيئية، أو المناخية، أو العنصرية وما إلى

ذلك، في حين أن ذلك المنهج الذي يبعثه السماء لا يشوبه أدنى شائبة من تلك الشوائب التي تدل على الضعف والنقص والحاجة.

فعندما يضع الإنسان مشروعاً فإنّه يصوغه بالشكل الذي يرتضيه هو ومَن يرتبط به مِن مجتمعه، ولكن ربّ العالمين عندما يضع مشروعاً أو يقر مبدأً أو منهجاً أو قانوناً فإنّه يضعه بحيث يتلاءم مع جميع من على هذه الأرض من بشر.

مشاريع ناقصة

من كلِّ ذلك يتبيّن لنا أن المشاريع الحضارية التي تُصاغ هنا وهناك تبقى مشاريع ناقصة تؤمِّن مصالح فئة معينة دون الفئات الأخرى وربما على حسابها، وعلى سبيل المثال: فإنَّ الأميركيين عندما يفكرون في مشاريعهم ويخططون لها، فإن تفكيرهم هذا ينطلق مما يؤمنون به من منطقٍ، ويتلاءم مع ظروفهم، وبما يوفر لهم مصالحهم، فإن الرئيس الأميركي الأسبق (جورج بوش) عندما فكر - مثلا - في تحرير الكويت فإن إختياره وقع على إتباع الأسلوب الذي لا يتسبب في ازهاق روح جنوده، فالذي وضع هذه الإستراتيجية لم يفكر كم سيُقتَل ويُباد من أبناء العراق، فهذا غير مهم عنده! إنما المهم عنده ارواح جنوده التي لو أزهقت لأثَّر ذلك عليه سلبا في التنافس الانتخابي.

هكذا يخطط الأميركيون، ويصوغون مشاريعهم، وإستراتيجياتهم العدوانية، وذلك من زاوية صيانة مصالحهم فقط وفقط، واستمرار نهبهم، ولا يهمهم بعد ذلك ما يجري على الآخرين من مصائب ووَيلات.

وفي المقابل فإنّنا لو استعرضنا الرسالات الإلهية التي إضطلع بها الأنبياء والمرسلون فإنّنا لا نجد في عملهم وحركتهم أدنى ذرة من تلك الإستراتيجيات، والمشاريع المصلحية، وحاشا لهم أن يفكروا في ذلك ولو للحظة واحدة، فما عند الأنبياء ليس من أنفسهم وإنما هو من عند الله تعالى من الوحي المبين، ولذلك فإن رسالة الرسول صلى الله عليه وآله رسالة شاملة تهتم بجميع أفراد البشرية أيّاً كانت إنتماءاتهم.

مشروع الرحمة

وعلى هذا فإن المشكلة تكمن في انعدام المشروع الإلهي الكوني الذي جاهد الأنبياء والرسل والأوصياء من أجله؛ المشروع الإنساني الكوني الشامل الذي يعطي لكل وجودٍ حقه، وهو المشروع الذي كانت ومازالت الإنسانية في كلّ عصرٍ ومصرٍ بأمس الحاجة إليه، والذي يمكن أن نسميه أيضاً بـــ**"مشروع الرحمة"** إنطلاقاً من قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وقبل فترة ليست بالبعيدة طرح أحد الخبراء الأميركيين مشروعاً على

١- الأنبياء: ١٠٧.

صندوق النقد الدولي يقضي بنقل الصناعات التي تسبب تلوث البيئة الى البلدان النامية لكي تتخلص شعوب البلدان يقضي بنقل الصناعات التي تسبب تلوث البيئة إلى البلدان النامية لكي تتخلص شعوب البلدان المتقدمة من النفايات، والمواد السامة الناجمة من هذه الصناعات، وليس مهمّاً في هذا المشروع الأناني أن تبتلي شعوب البلدان النامية بهذا التلوث، بل المهمّ أن تسلم رئة الأميركي ولا يصيبها أيّ أذى ولو على حساب البشر في البلدان الفقيرة!

بهذه الروح والتوجهات الأنانية يضع المستكبرون خططهم ومشاريعهم، وهذا الأمر ليس بالجديد في تأريخهم، فالسنوات الأخيرة وقبلها شهدت أموراً كهذه وخاصة بالنسبة إلى عمليات تصدير النفايات التي تجري بصورة سريّة في أغلب الأحيان، وهذه هي تجارة الموت الصادرة من مشاريع أنانية تتسم بروح الجريمة والعدوان.

إن هذه وغيرها من المشاريع والأفكار والمخططات المصلحية ذات المنظار الضيق والمحدود تشهد على الحاجة الشديدة للإنسانية إلى نهج الرسالات المتجسدة في خاتمتها، والتي جاء بها الرسول النبيّ الأمي الذي بُعث رحمة للعالمين، والذي تمثل شخصيته قمة الإنسانية الخيرة والرحيمة، والحاجة إلى هذه الشخصية ماتزال ملحة.

فلنتصفح التاريخ، ولننظر كيف كانت الحالة المزرية التي عاشها العرب قبل إشراقة الإسلام على الجزيرة العربية وعلى العالم.

ولعل أبرز ما يعكس هذه الصورة السوداء دفنهم لبناتهم وهن أحياء بغير رحمة ولا شفقة، وحالة الإقتتال والغارات التي كانت تحدث بين قبائلهم، وسيادة قانون الغاب حيث القوي يأكل الضعيف.

ولننظر بعد ذلك كيف إنقلبت أحوالهم تلك بعد فترة زمنية وجيزة من بعثة النّبي ﷺ إليهم وإلى العالم أجمع، فحدث على أثر ذلك إنقلاب جذري وعميق في طباعهم وأخلاقهم، وتحولوا من تلك الطبيعة الجافة والقلوب القاسية إلى أناس يتعاملون بالرحمة واللطف واللين والإيثار والبذل، بل صاروا إخوة في الإيمان، وأما في العبادة والطاعة فإنّ أجواف الليالي كانت شاهدة عليهم.

رسول الله يشتاق لِأويس

ولعل أحدهم (أويس القرني) الصحابي الجليل الذي لم ير الرسول ﷺ ولكنه لُقِّبَ بـ(الصحابي) لعظيم إيمانه وخلقه، وكثرة طاعته وعبادته، رغم أنه لم يصحب الرسول، ولم يشاهده، وقد روي أنَّ الرسول ﷺ قال عنه:

«تَفُوحُ رَوَائِحُ الْجَنَّةِ مِنْ قِبَلِ قَرَنٍ، وَا شَوْقَاهْ إِلَيْكَ يَا أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ، أَلَا وَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ».

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ؟

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: «إِنْ غَابَ عَنْكُمْ لَمْ تَفْتَقِدُوهُ، وَإِنْ ظَهَرَ لَكُمْ لَمْ تَكْتَرِثُوا بِهِ، يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فِي شَفَاعَتِهِ مِثْلُ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، يُؤْمِنُ بِي وَلَا يَرَانِي، وَيُقْتَلُ بَيْنَ يَدَيْ خَلِيفَتِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي صِفِّين»[1].

وجاء في حديث آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله أنه قال ذات يوم لأصحابه:

«أَبْشِرُوا بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ، فَإِنَّهُ يَشْفَعُ بِمِثْلِ رَبِيعَةَ ومُضَر»[2].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً بذي قار يأخذ البيعة من الناس إذ جاءه رجلٌ وطلب منه أن يمد يده ليبايعه، فسأله الإمام عليه السلام:

«وَعَلَى مَا تُبَايِعُنِي»؟

قال: على السمع والطاعة والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك.

فَقَالَ: «مَا اسْمُكَ»؟

فَقَالَ: أُوَيْسٌ.

قَالَ: «أَنْتَ أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ»؟

١- بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٥٥.

٢- بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٥٦.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُ أَخْبرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنيِّ أُدْرِكُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِهِ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ، يَكُونُ مِنْ حِزْبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، يمُوتُ عَلَى الشَّهَادَةِ، يَدْخُلُ فِي شَفَاعَتِهِ مِثْلُ رَبِيعَةَ وَمُضَر»[١].

وروي عن أويس القرني رحمة الله عليه أنَّ رجلاً سأله: كيف حالك؟ فقال:

«كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يُصْبِحُ يَقُولُ: لَا أُمْسِي، ويمُسْيِ يَقُولُ: لَا أُصْبِحُ، يُبَشَّرُ بِالْجَنَّةِ ولَا يَعْمَلُ عَمَلَهَا، ويُحَذَّرُ النَّارَ ولَا يَتْرُكُ مَا يُوجِبُهَا، واللهِ إِنَّ الْمَوْتَ وغُصَصَهُ وكُرُبَاتِهِ، وذِكْرَ هَوْلِ الْمُطَّلَعِ وأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَدَعْ لِلْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا فَرَحاً، وإِنَّ حُقُوقَ اللهِ لَمْ تُبْقِ لَنَا ذَهَباً ولَا فِضَّةً، وإِنَّ قِيَامَ الْمُؤْمِنِ بِالْحَقِّ فِي النَّاسِ لَمْ يَدَعْ لَهُ صَدِيقاً...»[٢].

وبهذه الصورة وغيرها من آلاف الصور تحولت تلك القلوب التي كانت كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك الجفاء الذي جعل الواحد منهم يقتل أخاه ربّما من أجل بضع تمرات، إلى قلوبٍ رحيمةٍ، ونفوسٍ لينةٍ

١- بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٤٧.

٢- أعلام الدين في صفات المؤمنين، ص ٣٢٥.

بفضل الرسالة المحمدية المباركة، فما أحوج البشرية اليوم إلى إشراقةٍ جديدةٍ لهذا الرسول ورسالته العظيمة.

ولقد أحسّ بهذه الحاجة كلّ من اطلع ولو على اليسير من آفاق هذه الرسالة من غربيين أو شرقيين فضلاً عن المسلمين أنفسهم، فهذا هو (جاك اتالي) الشخصية الفرنسية العالمية المشهورة، والذي كان يرأس بنك التنمية الأوروبي تحدث في كتابه الذي صدر حديثا والذي يحمل إسم "آفاق المستقبل" عن مشاكل الإنسانية ومآسيها، مبيّنا فيه كيف أن البشرية باتت تسير بسرعة هائلة نحو فنائها، شارحاً لذلك الأسباب، ومن ضمنها التدهور البيئي الذي يقف على رأس هذه الأسباب، كما وتعرض للحديث عن الحروب والأزمات الإقتصادية، والكثير من المشاكل والمعضلات التي تقضُّ مضجع البشرية، ثم ينتهي في كتابه إلى تقرير الحقيقة التي لا بد له ولغيره من المفكرين أن يعترفوا بأنّها هي التي تضع حداً للمأساة والمعاناة الإنسانية الكبرى حيث يقول:

بلى؛ فلا خلاص للبشرية وليس أمامها إلّا مخرج واحد وهو أن يأتيها منقذٌ كمحمدٍ، فإذا جاء من هو مثله إنكشفت هموم وغموم البشرية.

إنتظار الأمل لا يعني السكوت

وبالطبع فإنّنا كمؤمنين بانتظار ذلك الأمل المشرق المتمثل في حفيد

النّبي الأعظم ﷺ الإمام الحجّة بن الحسن العسكري عجل الله فرجه، ولكن هذا لا يعني أن نعيش اليأس حتى ساعة الظهور المباركة، فالقرآن والنهج النبوي هما اللذان يأخذان بالبشرية نحو الآفاق المشرقة في عصر الغيبة الكبرى، ثم هناك علماؤنا ومراجعنا الكرام الذين هم إمتداد لأئمة الهدى المعصومين، وبهذين النهجين وبجهود واجتهاد المراجع العظام يوضع المشروع الإنساني الكوني للحياة، هذا المشروع الذي لا يخص قوماً، أو طائفةً، أو عنصراً دون آخر، كما أنّ هذا المشروع الإلهي الشمولي الذي وضع أسسه، وبنى هيكله الخالق تعالى لا يقف عند الإنسان وحده، بل أنّه يشمل الوجود كلّه بأحيائه وجماده، ففيه مراعاة لحقوق كلِّ كائنٍ، وهو يستثمر كلّ طاقة من أجل بناء الحياة الفضلى.

إنّ الإنسان عندما يأوي إلى الإسلام ويرتدي ثوبه، ويلبس لباس التقوى، يغدو كائنا متطورا تنطبق عليه معاني الإنسانية الحقيقية، فيصبح ذلك الموجود العاقل الذي يستطيع أن يعيش بين أحضان الطبيعة ويتعايش معها.

رحمة للعالمين

ونحن نقرأ في السيرة النّبوية الشريفة ونلمس آثاراً كبيرةً تدل على معنى الشمولية الكونية في الإسلام، ومن ذلك كيفية تعامل النبي ﷺ مع

الحيوان، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (**بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ إِذْ لَاذَ بِهِ هِرُّ الْبَيْتِ وَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ عَطْشَانُ، فَأَصْغَى**[١] **إِلَيْهِ الْإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَ مِنْهُ الْهِرُّ وَتَوَضَّأَ بِفَضْلِهِ**»[٢].

وتارة يحذر من إيذاء الحيوان فيقول ﷺ - في حديثٍ -:

«**...وَرَأَيْتُ فِي النَّارِ صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ تَنْهَشُهَا مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً، وَكَانَتْ أَوْثَقَتْهَا، فَلَمْ تَكُنْ تُطْعِمُهَا، وَلَمْ تُرْسِلْهَا فَتَأْكُلَ مِنْ خِشَاشِ الْأَرْضِ**»[٣].

بل أنّ رحمة الإسلام شملت حتى الأفاعي التي تقطن في بعض زوايا البيوت، فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام - في حديثٍ - عن قتل الحيّات والنمل في الدور، فقال: «**...وَلَكِنْ لَا تَقْتُلُوا مِنَ الْحَيَّاتِ عَوَامِرَ الْبُيُوت**»[٤].

وهناك أيضاً الكثير من المناسبات والشواهد التي دلت وتدل على أن قلب النّبي ﷺ كان مفعماً بالحب والعطف والرحمة إلى درجة أنه قال عن نفسه: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[٥]. ولعل شهادة الباري عز وجل كافية في هذا المجال وذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٦].

١- أي: أمال الإناء.
٢- بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٣٩، ح١٦٠.
٣- دعائم الإسلام، ج٢، ص٤٦٨.
٤- قرب الإسناد، ص٨٣، ح٢٧٤.
٥- كشف الغمة، ج١، ص٨.
٦- سورة الأنبياء، الآية١٠٧.

وبعد؛ فهذه هي السيرة والأخلاق التي ينبغي أن نحياها في مشاريعنا ومناهجنا ومسيرتنا في هذه الحياة، لا الأخلاق المادية الأنانية التي يتخلّق بها الأنانيون والمصلحيون. فالمشاريع المادية الوضعية لا تتصف إلّا بالأخلاق الجاهلية الجافة، ولا تعير القيم الروحية والإنسانية أدنى أهمية، بل لا تعرف إلّا الذهب والفضة والدرهم والدينار، وبهذا الأسلوب تعمل على مسخ الإنسانية.

إنّ هذه المشاريع تفتقر إلى معاني التراحم والتعاطف، وبذلك تتفكّك في ظلها الأسر ليتفكّك المجتمع كلّه فيصبح أفراده ذئاباً مفترسة، وحيوانات يفتك بعضها ببعض، فالمجتمعات البشرية وخصوصاً الغربية تعج اليوم بالملايين من صور هذا التفكك والإنحلال.

تيار عظيم من العاطفة

ترى أين الغربيون من الإسلام وقوانينه ووصايا الرحمة التي سنّها من مثل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[2]، وهذه هي الأخلاق الإسلامية في إحدى جوانبها الكثيرة، فالإسلام هو تيار عظيم من العاطفة، وهو رحيم حتى بأعدائه، ومثل هذا الخلق الإسلامي العظيم

١- سورة الاسراء، الآية ٢٣.

٢- سورة الأسراء، الآية ٢٤.

نجده متجسداً في منهج النّبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ونحن عطاشى إلى هذا المنهل العذب، ولذلك فإن من الواجب علينا أن نستثمر سيرة الرسول ﷺ في حياته الشريفة لكي نحيا في هذه الدنيا حياة مثالية ملؤها السعادة والأمل والهناء ومع كلّ الناس في مختلف المجتمعات والأمم في الارض.

كيف نحقق السعادة الروحية؟

إنَّ مثل هذه الحياة المقرونة بالسعادة الروحية، والراحة النفسية، واطمئنان القلب نجدها متجلية عند علمائنا ومراجعنا العظام، فترى الواحد منهم يحمل قلب الفتوة والشباب بما نستشعره منه من روح الظرافة، وحسن المجاملة، رغم أنه قد يناهز المائة سنة من العمر، وعندما يتوفاهم الأجل فإنّهم يرحلون عن هذه الدنيا وهم في كامل صحتهم. وكلّ هذا مستوحى من آداب وأخلاق القرآن والسيرة النّبوية الشريفة، ولو أخذنا بهذه الأخلاق، وطبقناها في حياتنا لعشنا السعادة الروحية، والإطمئنان القلبي في أجواء مفعمة بالإيمان والتقوى وحب الله سبحانه وتعالى وحب رسوله وأهل بيته الميامين.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ينبغي أن نلتزم بأربعة أمور مهمة:

١ – مطالعة السيرة النّبوية الشريفة والعمل بها ما أمكننا، ففي بعض البلدان الإسلامية جرت عادة المسلمين هناك على أن يعقدوا الجلسات

الخاصة التي يتداولون فيها السيرة النّبوية، وأحوال النّبي ﷺ وصحابته الخلص؛ كيف ولد ونشأ، وكيف بعث بالرسالة، وكيف كانت دعوته ومن ثم جهاده وغزواته؟ بل وكلّ ما يتعلق به ﷺ وأصحابه من مآثر وأخلاق كريمة وفضائل ومناقب.

وللأسف فإنّنا نكاد نهمل هذا الجانب المهم من السيرة النّبوية، بل ربّما لم يقرأ أحدنا كتاباً كاملا عن حياة النّبي الاعظم ﷺ في حين أنّ الإمام السجاد عليه السلام يشير إلى أهمية هذا الجانب بقوله: «**كُنّا نُعَلِّمُ مَغَازِي النَّبِي ﷺ كَمَا نُعَلِّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآن**»[1].

٢- إتخاذ النّبي ﷺ أسوة وقدوة لنا في حياتنا. وفي هذا المجال يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2]، وهذا يعني ضرورة التخلق بأخلاق الرسول ﷺ والتأدب بآدابه من خلال تقصي كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تتعلق بآدابه، وأخلاقه، وطرق تعامله، فقد جاء في بعض الروايات - مثلا - أنه ﷺ كان عندما يريد شرب الماء يلتزم بعدد كبير من الآداب في هذا الخصوص[3]، وروي عنه ﷺ أنه كان عندما يجلس بين أصحابه يوزع نظره بينهم، وعند الإشارة

١- البداية والنهاية [ابن كثير]، ج٣، ص٢٩٧.
٢- الأحزاب :٢١.
٣- انظر: بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٤٦- ٢٤٧.

كان يؤشر بكلّ يده الشريفة، وعند المصافحة كان لا يترك يد المصافح حتى يبدأ هو بسحبها، وقد قيل أن أحداً لم يكن يسبق الرسول ﷺ في المبادرة بالسلام والتحية[١].

من آداب الرسول ﷺ

وهكذا كان ﷺ في حياته مع أهل بيته، وفي حياته الخاصة، وفي قيامه، وقعوده، ونومه، وتناوله الطعام، فقد كان ﷺ يقسم فترة نومه إلى ثلاثة أقسام؛ بأن يضطجع قليلا بعد صلاة العشاء، ثم ينهض ليصلي بضع ركعات، ثم ينام قليلا، لينهض بعد ذلك في جوف الليل وينشغل بالصلاة حتى طلوع الفجر[٢].

وعند الطعام لم يكن ﷺ يذكر طعاماً تشتهيه نفسه، وما عاب قطُّ طعاماً قُدِّم له، ولم يكن يطلب الأكل حتى يُقدَّم له، فان لم يؤت له به نهض ونام[٣].

وقال علي عليه السلام: «**كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبَاءَةً، وَكَانَتْ مِرْفَقَتُهُ مِنْ أَدَمٍ**[٤] **حَشْوُهَا لِيفٌ، فَثُنِيَتْ لَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: لَقَدْ مَنَعَنِي الْفِرَاشُ اللَّيْلَةَ الصَّلاَةَ، فَأَمَرَ ﷺ أَنْ يُجْعَلَ بِطَاقٍ وَاحِدٍ**»[٥]. وهذا دليل على

١- أنظر: بحار الأنوار، ج١٦، باب مكارم اخلاقه وسيره وسننه.
٢- أنظر: تهذيب الأحكام، ج٢، ص٣٣٤، ح٢٣٣.
٣- أنظر عن آداب النبي في مطعمه: مكارم الأخلاق، ص٢٦-٣١.
٤- المرفقة: الوسادة. والأَدَم: باطن الجلد.
٥- الأمالي [للصدوق]، ص٤٦٦.

أنّ حبه ﷺ للصلاة كان حباً جماً.

ترى هل نحن ننهض للصلاة ولو باليسير من هذه الروح، ومن هذا الحب للقاء الله تعالى، أم ترانا ننهض مكرَهين ضجرين، فلا نعي ما نقول عندما نصلي، أوليس الكثير منا لا يعير أذنا صاغية لنداء «**حي على خير العمل**» الذي يدعونا إلى تلك اللحظات التي هي جوهر ما في حياتنا كلّها؟ هذا في حين أنّ النّبي ﷺ يقول: «**لَا تُضَيِّعُوا صَلَاتَكُمْ، فَإِنَّ مَنْ ضَيَّعَ صَلَاتَهُ حُشِرَ مَعَ قَارُونَ وَهَامَانَ، وَكَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ النَّارَ مَعَ الْمُنَافِقِينَ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى صَلَاتِهِ وَأَدَاءِ سُنَّةِ نَبِيِّه**»[١].

اين نحن من أدب النّبي ﷺ عندما كان يجلس في محرابه لينتظر حلول وقت الصلاة لحظة بلحظة، فما أن يدخل وقتها حتى ينادي بلالا ﵁ أن: «**أَرِحْنَا يَا بِلَال**»[٢]، كما أنه ﷺ كان يوصي ويؤكد على أهمية الصلاة بقوله: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاة**»[٣].

إنّ الصلاة هي حصن التوحيد وإطاره، وعندما ندخل هذا الحصن تنهمر علينا سائر البركات التي نرجوها في حياتنا، ولذلك فإنّ علينا أن نهتم بالصلاة كثيراً كما نهتم بصحتنا وسلامتنا.

١- بحار الأنوار، ج ٨٠، ص١٤.

٢- بحار الأنوار، ج ٧٩ ، ص ١٩٣.

٣- بحار الأنوار، ج١٦، ص ٢٤٩.

٣- حب الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وإكثار الصلوات عليهم.

إنّ حب الرسول صلى الله عليه وآله يتجلى بذكر الصلاة عليه وعلى آله الميامين، ودرجة الإنسان المؤمن في الآخرة ترتفع بمقدار حبه للنّبي صلى الله عليه وآله والذي يحب الرسول لا بد أن يحب أهل بيته، والمحب لأهل البيت عليهم السلام هو محب لشيعتهم، ولكل فرد من أمة محمد صلى الله عليه وآله.

وهكذا فإنّ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله تمثل كلّ الفضيلة، ذلك لأن في الصلاة هذه ذكرا لله عزّ وجلّ، ودعاء للأمة الإسلامية، فعندما يصلي الإنسان المؤمن على الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ويسأل الله تعالى أن يرفع درجته، فإنّ في عمله هذا رفعاً لدرجته هو أيضا عند الله، ونحن - سواء كنا في العراق أم في إيران أم في لبنان أم في أفغانستان أم في البوسنة والهرسك - عندما نصلي على النّبي صلى الله عليه وآله فإنّه سبحانه سيكشف عنا غمومنا وهمومنا، ويُيسر لنا ما تَعسر من أمورنا، وما صعب من مشاكلنا.

ولذلك ينبغي علينا أن نكثر من هذه الصلوات، وأن نؤكد عليها في كلِّ محفلٍ، ففيها إظهار المحبة للرسول وآله، وبالتالي الحب لله تعالى شأنه.

٤- العمل بنهج الرسول صلى الله عليه وآله وأوامره ونواهيه، وهذا ما يدعونا إليه القرآن الكريم، وما غاب عنّا من هذه الأوامر والنواهي نجده عند أئمتنا عليهم السلام الذين هم عدل الكتاب، وثاني الثقلين.

٥

العالم يبحث عن رسالة النّبي محمد ﷺ

وأد البنات صورة واحدة من الجرائم التي كانت تتكرر في الجزيرة العربية قبل بعثة النّبي محمّد ﷺ وعندما بُعِثَ النّبي ورزقه الله تعالى الكوثر «**الزهراء**عليها السلام»، علم هذا المجتمع القاسي الفاقد للعاطفة كيف يتعامل مع الفتيات من خلال تعامل النّبي السامي مع إبنته فاطمة عليها السلام.

حيث قال في حقها: «**فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ سَرَّهَا فَقَدْ سَرَّنِي**»[١].

وقال أيضاً: «**يَا عَلِيُّ! إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي، وَهِيَ نُورُ عَيْنِي، وَثَمَرَةُ فُؤَادِي، يَسُوؤُنِي مَا سَاءَهَا، وَيَسُرُّنِي مَا سَرَّهَا**»[٢].

وتقول عائشة: «**انت [فاطمة] إذا دخلت عليه [على النّبي] رحَّب بها، وقبَّل يديها، وأجلسها في مجلسه، فإذا دخل عليها قامت إليه**

١- أمالي [الصدوق]، ص١٠٤.

٢- المصدر، ص٤٨٧.

فرحبت به، وقبلت يديه»[١].

وبهذه الكلمات والمواقف حوّل النّبي ﷺ ذلك المجتمع الجاهلي العاتي، إلى مجتمع يفيض عاطفة وإنسانية وحباً.

وقد كانت هناك صور أخرى لجاهلية هذا المجتمع قبل الإسلام، فكلّ قبيلة كانت ترى أن أفرادها يجب أن يبلغوا عدداً معيناً لا يتجاوزونه، فإنْ ولد فيهم مولود جديد دفنوه حياً! بنتاً كان أم ولداً، لأنهم كانوا يزعمون أنّ الأرض التي يعيشون عليها لا تكفي لإطعام أكثر من العدد الذي يحددونه، وهكذا فقد كانوا يئدون الأولاد ويقتلونهم، كما كانوا يئدون البنات ويقتلونهن، فجاء القرآن الكريم ونهاهم عن هذه الممارسة الخاطئة قائلاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[٢].

جاءت الرحمة الإلهية

وجاء الرسول ﷺ وجاءت معه الرحمة الإلهية، ولننظر كيف كان ﷺ يتعامل مع الحسنين:

يُروى أنَّ رسول الله ﷺ كان يخطب على المنبر، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر

١- الأمالي [الطوسي]، ص٤٠٠.

٢- الأسراء : ٣١.

فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[١].

وفي خبر أنه قال: «**أَوْلَادُنَا أَكْبَادُنَا يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْض**»[٢].

وبهذه الكلمات وغيرها كان ﷺ يعبر عن مدى العاطفة التي يجب أن يكنها كلّ أبٍ تجاه أولاده الذين هم ككبده.

كما روي عنه ﷺ في هذا المجال أنه كان يحمل الحسن والحسين عليهما السلام فقال له بعض أصحابه: ناولني أحدهما يا رسول الله. فقال النّبي ﷺ: «**نِعْمَ الرَّاكِبَانِ وَأَبُوهُمَا خَيرٌ مِنْهُمَا**»[٣].

وروي أيضاً عن أنس، وعبد الله بن شيبة عن أبيه أنه دعي النّبي ﷺ إلى صلاة والحسن متعلق به، فوضعه النّبي ﷺ مقابل جنبه وصلّى، فلما سجد أطال السجود، فرفعتُ رأسي من بين القوم فإذا الحسن على كتف رسول الله ﷺ فلمّا سلّم قال له القوم: يا رسول الله! لقد سجدتَ في صلاتك هذه سجدة ما كنتَ تسجدها كأنّما يوحى إليك. فقال ﷺ: «**لَمْ يُوحَ إِليَّ، وَلَكِنَّ ابْنِي كَانَ عَلَى كَتِفِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى نَزَل**». وفي رواية اخرى أنه ﷺ قال: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَه**»[٤].

بهذه الأخلاق السامية، والعواطف الفياضة بالحنان كان ﷺ يتعامل

١- سورة الأنفال، آية ٢٨.

٢- بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨٤.

٣- علل الشرائع، ج١، ص١٧٤.

٤- مناقب آل ابي طالب [ابن شهراشوب]، ج٤، ص٢٤.

مع الأطفال، فلنقارن صورة الأب الذي يأخذ إبنته أو إبنه ليدفنهما أحياء مع صورة النّبي ﷺ وهو يعامل الحسنين تلك المعاملة المتدفقة حباً وحناناً.

وصورة أخرى أعرضها عن المجتمع الجاهلي: ذات مرة هاجمت قبيلةٌ قبيلةً أخرى، فأسروا أفرادها، وقد كان الهجوم يتم عادة بالمكر والخداع، حيث يباغتون الناس وهم نائمون من دون سابق إنذاز، وربّما من دون أي سبب، فيحتلون موقعهم، ويأخذونهم أسرى، وهنا وقف شيخ القبيلة المغيرة، ووضع الرمح على كتفيه، وبدأ ينشد الأشعار الحماسية ليبين من جهة فضائل قبيلته، ومن جهة أخرى يهجو القبيلة التي إنتصر عليها، وفي هذه الأشعار كان يحرض أبناء قبيلته على الأسرى، فما كان منهم إلّا أن قتلوا الأسرى بأجمعهم، وأبادوهم عن بكرة أبيهم.

ولنقارن الآن هذه الصورة الجاهلية الوحشية مع صورة الرسول ﷺ عندما فتح مكة، هذه الأرض المقدسة التي كانت تقطنها قبيلة قريش التي سامت الرسول ﷺ واصحابه سوء العذاب طيلة ثلاث عشرة سنة؛ فما من إيذاء ومضايقة إلّا وارتكبوها بحق الرسول ﷺ فكانوا يأذونه في الطريق، ويرشقونه بالحجارة، ويدفعون اولادهم إلى إيذائه، ويلقون في طريقه الأشواك، ثم لاحقوه إلى المدينة، وقتلوا عمه، وضربوه وجرحوه، وقتلوا أصحابه، وفعلوا به ما فعلوا.

العفو النبوي الأعجوبة

وعندما انتصر النّبي ﷺ عليهم في فتح مكة، جاء إلى المسجد الحرام، وهنا تسمَّرت أعين الكفار والمشركين على شفتيه، فقال ﷺ بعد خطبة قصيرة وهو واقف عند باب الكعبة: «**يَا مَعشرَ قُرَيْشٍ! مَا تَرَوْنَ أَنيِّ فَاعِلٌ بِكُمْ**»؟ **فقالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال** ﷺ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءِ**»[1].

وهكذا وبكلمة واحدة أطلق سراحهم، بل وأغدق عليهم الأموال، وعفا عنهم!

وهكذا فلولا بعثة الرسول ﷺ إلى الجزيرة العربية لانقرض بَشَرها لأن الناس كانوا يتقاتلون، وكان الأولاد يُقتلون، والبنات في تناقص مستمر بسبب حماقات الجاهلية، ولكن أدركتهم هنا الرحمة الإلهية المهداة، وجاءت لا لتنقذ الجزيرة العربية فحسب وإنما البشرية كلّها.

محمّد ﷺ الأمل

جدير ذكره في هذا المجال أنّ أحد المفكرين الفرنسيين كتب كتاباً تحت عنوان «**آفاق المستقبل**» يقول فيه: إنّ مستقبل البشرية مهدد لأسباب عديدة، وإنّ الأمور إذا سارت على هذا المنوال فإن مستقبل الحضارة البشرية سيكون في خطر عظيم، وأن لا أمل للبشرية سوى أن يأتي شخصٌ

١- البداية والنهاية [ابن كثير]، ج٤، ص٣٤٤.

مثل محمّد ﷺ الذي أنقذ البشرية في يوم من الأيام، وغيَّر مسارها.

وعندما كتب أحدهم كتاباً حول أعظم شخصية في العالم؛ يختار شخصاً واحداً من بين الشخصيات الكثيرة التي ظهرت على مر التاريخ، ألا وهو رسول الله محمّد ﷺ ذلك لأنه لم يأت إنسان عبر التاريخ المديد للبشرية ترك آثاراً إيجابية على مسيرة الإنسانية كالنّبي محمد ﷺ.

وهكذا جاء إلى البشرية أخيراً المنقذ الذي لا ينقذ منطقة واحدة فحسب، أو جيلاً خاصاً، بل ينقذ العالم وعلى امتداد الأجيال، ويملأ نوره الخافقين، وسيبقى هذا النور يشع، ويمتد شعاعه حتى يظهر الله عزّ وجلّ دينه على الدين كلّه من خلال ظهور الإمام الحجّة المهدي (عجّل الله فرجه).

كلّ الإيجابيات للإسلام

إنّ هذا الفصل لا يسع لأن أحدِّث عن مختلف الآثار الإيجابية لبعثة الرسول ﷺ ولكن أؤكد بإجمال أن ما نجده من آثار إيجابية في الحضارة البشرية إنّما هو بفضل تعاليم الإسلام، فالفلاسفة والمؤرخون والمفكرون كلّهم يعترفون أن الحضارة الأوروبية هي من إشعاعات الحضارة الإسلامية، فالمذهب البروتستانتي – على سبيل المثال – الذي أسسه (لوثر كينغ) إنّما تأثر بالنظرة التوحيدية الإسلامية، وهذه النظرة هي التي دفعت بالحضارة الغربية إلى هذا المستوى الرفيع من التطور والتقدم.

وأما فيما يتعلق بالعلوم التي انتقلت من الأندلس الإسلامية إلى الغرب بصورة مباشرة فالحديث عنها مفصل ومتشعب ومثبَت في كلّ الكتب التاريخية، ولكن هذا ليس الشوط الأخير في سلسلة الحلقات المتصلة بهذه الرحمة الإلهية؛ أي إن الحضارة البشرية لم تستطع بعد أن تستمد كلّ النور والهدى من حضارة الإسلام، فالذي استفادته البشرية من القرآن الكريم، ومن النّبي ﷺ إنّما هو بصيص من النور.

رحمة استوعبت البشرية

إنّ أخلاق النّبي ﷺ وسيرته، وتعاليمه من شأنها أن تستوعب البشرية كلّها، والعالم الآن يعاني من مشاكل وأزمات لا تنتهي؛ فهناك صراع الشمال والجنوب؛ أي أنّ الصراع بين الأغنياء والفقراء يشتد لتبدأ إضطرابات وثورات في الجنوب، وقمع من قبل الشمال، وبالتالي حروب ومعارك... ترى ماهي جذور هذه المشاكل والأزمات، وماهو أصل هذه المفاسد؟

أزمة أخلاق وضمير

الجواب هو أن البشرية مصابة بأزمة أخلاق وضمير، كما يشير الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1].

١- سورة الروم، الآية٤١.

وعلى سبيل المثال: لو أن شيئا قليلا من ترسانات الأسلحة الكيمياوية والنووية وغيرها استُخدمت لما بقي أيٌّ كائنٍ حيٍّ على هذه الأرض، ومثل هذه الأسلحة إنما تستخدم عندما تكون هناك أزمة أخلاق، وعندما تشتهي مصالح وأهواء المستكبرين.

وعلى هذا فإنّ البشرية اليوم بحاجة إلى أخلاق، وبالتحديد أخلاق رسول الله ﷺ الذي قال: «**إنمّا بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[١]. صحيح أنّ الغربيين يملكون إقتصاداً قوياً، وأنّ اليابانيين - على سبيل المثال - يضربون الآن الرقم القياسي في النمو الإقتصادي والتكنولوجي، وأرباحهم تقاس بالترليونات، ولكن ذرّة من الأخلاق أعظم من كلِّ هذا الربح والإمكانيات، فهذه الأرباح أين تذهب؟ وما فائدة سيارة ضخمة عملاقة ليس فيها مقود؟ إنّ ضررها أكبر من نفعها، لأنّها سترمي بنا إلى وادٍ سحيق.

والحضارة البشرية اليوم تشبه إلى حد كبير سيارة تسير بسرعة جنونية دون أن يكون فيها مقود، فهي قوة بلا عقل، وتقدم بدون ضمير.

إنّ البشرية بحاجة اليوم إلى تلك الرحمة الإلهية، إلى النّبي ﷺ وإلى من يحمل رسالته، ونحن نفتخر بإنّنا ننتمي إلى هذه القدوة الإلهية، ونفتخر بأنّنا سنظل على هدى رسول الله ﷺ ونعتقد بأن هذه الثروة الحضارية التي

١- بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٠.

نمتلكها لا تُقدَّر بثمن، ولو أعطونا الدنيا كلّها ثم سلبوا منا الولاء للنّبيﷺ لما كانت هذه الدنيا تعدل عندنا شيئاً، لأنَّ ولاءنا ضميرٌ، وروحٌ، وحبٌ، ونهجٌ صحيحٌ في الحياة.

واجبنا إزاء الرسالة

ترى ماذا يجب علينا أن نفعل تجاه هذه الرسالة الإلهية؟

علينا أن نزرع الأخلاق الحسنة في ربوع هذا العالم، شريطة أن نتحلى نحن بها أولا ثم نكون المثل الأعلى لهذه الأخلاق، ونبشر بها كلّ الشعوب، فلو عرفت البشرية ماذا تعني رسالة الإسلام حقاً لتنبهت إليها واهتمت بها.

وهنا لا بد أنْ نتذكَّر هذه الحقيقة، وهي أن العالم ظمآن، والذي يروي غليله ليس إلا رسالة الإسلام، وسيرة النّبي المصطفى ﷺ فعلينا أن نكتب عنه للعالم قائلين بملء أفواهنا: هذا هو النّبي الذي ندعو إليه. ولنعلم أن مسؤوليتنا خطيرة، وواجبنا عظيم في هذا المجال.

إن الله عزّ وجلّ يقول:

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾[١].

فالرسول ﷺ جاء ليفصل للناس رسالات الله، وليبين العلم الحقيقي، ويعفو عن كثير، ويخفف عن البشرية أعباءها، كما قال سبحانه: ﴿قَدۡ

١- سورة المائدة، الآية١٥.

جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[١]، فالنور هو النّبي ﷺ وهذا النور في إشعاع أبدي.

رسالة العلم والحياة السعيدة

أما الكتاب المبين فيقول عنه عزّ وجلّ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٢]، فهذه الرسالة هي رسالة العلم لأنّه نور، ورسالة الحياة السعيدة لأنّ السلام هو الذي يحققها.

إنّ البشرية كانت تحتاج في ذلك اليوم إلى هذه السبل، وهي الآن مازالت بحاجة إليها، بل أنها أحوج ما تكون إليها بسبب الأزمات والمشاكل اللا متناهية التي تعاني منها في هذا العصر والتي استعرضنا جانبا منها، فهذه البشرية هي بحاجة ماسة إلى السلام والأمن والإستقرار والسعادة الحقيقية في ظل الإسلام، وفي ظل القيادة الإلهية الرشيدة، ليخرجها الله تعالى من الظلمات إلى النور، ويهديها إلى صراط مستقيم.

١- سورة المائدة، الآية١٥.

٢- سورة المائدة، الآية١٦.

٦

كيف ندعو العالم إلى نهج النّبي ﷺ؟

إذا أردنا أن نقارن الحياة التي نعيشها بالحياة التي أراد الله تعالى لنا أن نعيشها لوجدنا الفرق هائلا، والفجوة واسعة، خصوصا إذا عرفنا أنّ الإنسان يمتلك فرصة ليعيش حياة كريمة ملؤها الرفاه والسلام والسعادة.

وهنا ندرك مدى حاجة البشرية إلى رسالات الله عزّ وجلّ ورسله، وإلى ذلك الشخص الفذ العظيم المتمثل في النّبي الأعظم ﷺ وتعاليمه التي من شأنها أن تجعل من حياتنا حياة أخرى.

نفوس مكبّلة بالقيود

وفي هذا المجال لنلق نظرة إلى هذه الدنيا التي نعيشها، ولنبدأ من زاويةٍ واحدةٍ هي زاوية الحالة النفسية، فلو تمثلت لنا أنفسنا في صورة مجسَّدة لرأيناها مكبَّلة بالقيود والإصر والأغلال، ومثل هذه النّفوس لا يمكنها أن تعيش سعيدة، لأنها مسجونة، مكبَّلة، ترسف في قيودها، في حين أن

الحياة التي بشرنا بها الإسلام، ودعانا إليها الرسول ﷺ هي حياة الإنطلاق والحرية، حياة الأخوة، حياة لا تقيّدها الأطماع الرخيصة.

وحتى الحياة في البلدان الصناعية المتقدمة التي تبدو أنها قائمة على الحرية والديمقراطية فإنها ليست قائمة – في الواقع – على الحرية الحقيقية، لأنَّ الإنسان هناك عبد لشهواته، فأيَّة حرية لهذا الإنسان الذي لا همَّ له إلّا التفكير في بطنه وشهواته؟ هل هذه هي الحياة السليمة؟ أم أنها حياة ذلك الرجل العظيم الذي يقول: «**وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ**»[١].

ثقافة المادة

فلننظر إلى تربية الإنسان في عالم اليوم، وإلى الثقافة السائدة، إنها ثقافة المادة، ثقافة كلّ همّها إدخال الإنسان في معتقلات الدنيا، فما هو الفرق بين إنسان تقيَّد يداه إلى ظهره ويرسف في قيود مادية، وبين إنسان يخاف من ظله؟ إنهما كلاهما يعيشان الموت، فالبخل فقرٌ عاجلٌ، والخوف موت عاجل.

إننا نلاحظ الآن – على سبيل المثال – مدى تورط العالم في المخدرات إلى درجة أنَّ هناك بعض البلدان يتعاطى نصف أهلها المخدرات، والنصف الآخر يتاجر بها كما نلاحظ ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية،

١– نهج البلاغة [صبحي الصالح]، خطبة ٢٢٤، ص٣٤٧.

فالإحصائيات تشير إلى أن تعاطي المخدرات في حالة ازدياد مستمر بشكل رهيب!

وفي إحصائية أخرى عن المانيا الغربية جاء: أنّ ظاهرة تعاطي المخدرات في حالة إرتفاع بين النساء والفتيات الصغيرات! في حين أنّ كلّ إنسان يعرف ماذا تعني هذه السموم من الموت العاجل، ومع ذلك تراهم يعملون ليل نهار، ويمدون أيديهم، ويمارسون التسول في سبيل أن يشتروا المخدرات ليغيبوا بها عن هذا العالم ساعة أو ساعتين!

ترى لماذا يفعل الإنسان الغربي كلّ ذلك؟ الجواب: لأنّه لا يشعر بالراحة والسعادة في ظل الثقافة المادية، فالخوف يلاحقه، وهو يبحث عن الشهوات، وهو مقيد بعشرات القيود المادية.

الحياة في ظل الإسلام

ترى هل هذه هي الحياة الحقيقية أم الحياة التي يدعو إليها الإسلام؟

إنّ الإسلام يجعل الإنسان يعيش السعادة حتى وهو يرزح تحت أحلك الظروف، ولنا في هذا المجال خير أسوة وشاهد بالإمام الكاظم عليه السلام الذي عاش المحن والمآسي في سجون بغداد، ومع ذلك فقد كان يحمد الله تعالى ويشكره لأنه وفَّر له فرصة مناسبة يتفرغ من خلالها للعبادة.

وهكذا فإن الحضارة الإيمانية هي من الناحية النّفسية حضارة الحياة،

في حينٍ أنّ الحضارة المادية هي حضارة الموت، وحتى لو رأيت إنسانا يعيش على الأرض ويتحرك ولكنه في الحقيقة ميت إذا لم يكن يتبع الصراط الإلهي القويم، في حين أنّ الإنسان الذي يعيش في ظل المنهج الإلهي هو إنسانٌ حيٌ يعيش السعادة والطمأنينة.

والدليل على ذلك أنّ الغربيين أصبحوا اليوم يهربون من الحياة إلى المخدرات، والمسكرات، والعربدة، وإلى كلّ ما من شأنه أن يلهيهم، إلى درجة أن البعض منهم يفضل أن يتخلص من الحياة بالإنتحار، فالإحصائيات مذهلة في هذا المجال، وهي في حالة إزديادٍ مستمرٍ في كلّ عام!

إنّ الإنسان إنما يتهرب من هذه الحياة لأنّها ليست الحياة التي خُلق لها، وليست الحياة التي يقول عنها القرآن الكريم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١]، فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى ما يجعلهم يعيشون حياة حقيقية.

وهكذا فانّنا بحاجة إلى رسول الله ﷺ لكي يغيّر هذه الحياة التي أصبحت اليوم تافهةً، فالإنسان الذي يعيش في الظلام لا يمكنه أن يفهم معنى النور، والبشرية اليوم تعيش هذا الظلام، وهي متعطشة إلى النور، وحينئذ ستدرك أنّ تلك المادية الطاغية التي كانت تعيشها إنّما كانت في

١- سورة الأنفال، الآية٢٤.

الحقيقة سجناً كبيراً، ولذلك قال تعالى في معرض تبيينه لصفات الرسول صلى الله عليه وآله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا۞وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1].

إنّهم يحطّمون القيم

إننا نعيش حياة ملؤها الظلام الدامس، والجور الهالك، إلى درجة أنّ الإنسان يتمنى الموت لكي يتخلص منها ومن جبروت الجبّارين وطغيانهم وظلمهم، فهم يحطمون القيم بطرق مختلفة، وينشرون الإباحية، ويحاربون كلّ من يدعو إلى الله جلّ وعلا.

والسؤال المهم الذي أريد أن أطرحه هنا هو: كيف نعيد البشرية إلى حياة الرسول صلى الله عليه وآله إلى تلك الحياة المليئة بالسعادة الروحية، والهناء المادي؟ والجواب يتلخص في نقطتين مهمتين:

١ - ضرورة وجود مجموعة من الناس ممن لا يهابون أية قوة، ويحملون رسالات الله، والذين قال عنهم الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[2]، ووجود مثل هؤلاء كفيل بإعادة البشرية إلى تلك الحياة السعيدة القائمة

١- سورة الأحزاب، الآية٤٥ - ٤٦.

٢- سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

على القيم والمثل الإلهية.

٢- أن نتحدث للعالم عن حياة الرسول ﷺ وإنجازاته العظيمة، والسؤال المطروح هنا: ترى كم كتبنا عن شخصية النّبي ﷺ وهل نحن في المستوى المطلوب في هذا المجال؟

لقد كُتبت وأُلفت الكثير من الكتب من قبل المستشرقين، وهم يكتبون كأعداء، ويتكتمون على الكثير من الحقائق، فأين نحن من الرسول ﷺ؟ وأين نحن من الإمام السجاد عليه السلام الذي كان يقول: «**كُنّا نُعَلِّمُ مَغَازِي النَّبِي ﷺ كَمَا نُعَلِّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآن**»[1].

مسؤولية كبيرة

إنّ علينا الآن مسؤولية كبيرة إزاء أطفالنا، فنحن مكلفون بتعليمهم سيرة الرسول ﷺ لكي تعيش هذه الشخصية العظيمة في قلوبهم. ترى كم واحداً منا قرأ كتابا عن حياة النبي ﷺ؟ وهل تكفي قراءة هذا الكتاب الواحد؟ وكيف يكون الرسول نبيّنا ونحن لا نعرفه؟ إن معرفة الرسول والأئمة شرط من شروط كمال الإنسان.

ولذلك فإنّ من الواجب علينا أن نعرف الرسول ﷺ أولا، ثم نعرف العالم به بعد ذلك لكي نستطيع أن نقدم صورة ناصعة لهذه الشخصية

١- البداية والنهاية [ابن كثير]، ج٣، ص٢٩٧.

العظيمة إلى البشرية وهي تعيش اليوم أحلك الظروف وأكثرها تأزما حيث تصبح الحاجة إلى النهج الذي بشرت به هذه الشخصية حاجة أساسية من حاجات العالم اليوم.